حركة التحرير الوطني الفلسطيني
« فتح »
التعبئة والتنظيم
الدراسات

# نشوء الأمّة العربيّة

الثورة طريقنا للحريه

ثورة حتى النصر

أيلول ١٩٨١

# نشوء الامة العربية

و

# اصول الشعب اليهودي

جملة المجتمعات الانسانية : عند التقدم في مراحل التاريخ الانساني تتقدم ايضا العلاقات الاجتماعية في المجتمع الواحد وبين المجتمعات بحيث تقوم في النتيجة اكمل صورة للحياة بالكائن الحي العامل المؤلف من جملة ( منظومة ) المجتمعات الانسانية المترابطة ترابطا عضويا . وان نمو هذه الجملة الانسانية تكاد تقابل نمو كائن حي : من البدايات البسيطة لولادته الى الاطوار العليا لوجوده . وهذه المراحل هي الاطوار العامة للمجتمعات من الشاعة البدائية فالطور العبودي فالطور الاسلامي الخ .. وفي اطار هذه الجملة ونتيجة لعملية تقدمها في نموها نشأت مختلف التجمعات الانسانية التي اخذ كل واحد منها دوره في دفع هذه العملية التاريخية الكلية ( كعضو حي للجملة يدوم بدوام دوره ) : نشأت المجتمعات على اختلافها ونشأت الامم والاجناس والدول وغيره .

وبعبارة بسيطة ان التجمعات الانسانية للجملة في كل فترة من تاريخها هي مقوماتها واعضاؤها المتفاعلة فيما بينها بالتفاعلات المناسبة لتلك الفترة ،فهي تقوم بالجملة ،كما تقوم الجملة بسببها . وهذه الامور على بساطتها على درجة كبيرة من الاهمية ،ولعل اهمالها هو الذي يقود الى ارتكاب الاخطاء الفادحة ويفسح المجال للتضليل في عدد من القضايا الاجتماعية الاساسية :

- في التعريف المتداول للامة مثلا لانجد اي اثر لدورها

في تكوين جملة المجتمعات الانسانية ،ونجد بدلا عن ذلك مميـــــزات وصفات ثانوية تقوم على العموم بعد انقضاء حقبة زمنية ( طويـــلة نسبيا ) على ممارسة الامة لدورها ،كما ان بعضها غير ثابت. فاذا سلمنا مثلا بان الامة ككائن مادى تحتاج الى زمن كاف لتكونهـــا ولممارسة دور محسوس في تكوين الجملة الانسانية نجد ان مزايـا اللغة والارض المشتركة والاقتصاد الواحد وغيره ( مما يوضع في العادة كعنصر اساسي لتكون الامة ) لايمكن ان تقوم قبل بروز الامة بدورها المذكور ،كما لاتقوم الا بعد ممارسة هذا الدور زمنا كافيا - ومن البديهي ان يكون غير معرف ومحدد لاى كائن مادى دوره في الجملة المادية التي يعود اليها . وفي حالة اغفال هذه الجملة نغفل بالبديهة الحال الدور المذكور ونقع بالتالي في تحديدات وتعاريف نحار في تعريفها ! ..وسنعود الى هذا الموضوع فيما يلي من البحث .

- واغفال جملة المجتمعات الانسانية يفسح المجال للظن الخاطئ المضلل بامكان وجود المجتمعات الانسانية المتزامنة فـــي اطوار تاريخية مختلفة وكانها لاتتفاعل فيما بينها وكان كل واحد منها يعيش معزولا عن المجتمعات الاخرى ( فلا يعترك معها في بناء جملة واحدة وفي المرور بطور واحد هو طور هذه الجملة ) .

ولنلق فيما يلي نظرة عاجلة على الاطوار التي مرت بها جملة المجتمعات الانسانية مع ملاحظة ان بدايات هذه الجملة تأخر ظهورا طويلا عن ظهور الانسان على الارض او بعبارة اخرى : ان الانسان قضى ازمانا طوالا كي يرتقي الى مرحلة الحياة الاجتماعية

في بدايات جملة مجتمعات تنشأ وتنمو وتتكامل .

ا - طور المشاعة البدائية : ظهرت في هذا الطور هنا وهناك من اقاليم الكرة الارضية الملائمة لحياة الانسان البدائي ، الجماعات الاولى التي شكلت بذور وملف المجتمعات المتقدمة التي قامت فيما بعد وارتبط بعضها بالبعض الآخر بشتى الروابط . وكانت الجماعة الواحدة ( او المشاعة ) تقضي اوقاتها في الكفاح بوسائلها البدائية ضد الطبيعة القاسية الشحيحة للحصول على مايسد حاجاتها الملحة ولحماية نفسها من مختلف الاخطار . الا ان تركيز المعايشة في مجالات محددة ومواجهة التجارب والظروف والصدف المتكررة ( او المتنوعة ) طيلة العديد من القرون . كل هذا وغيره ادى الى تطوير الوسائل والاساليب لسد الحاجات التي اتسمت ايضا بتقدم الزمن . ثم نضجت الظروف في نهاية الامر لالتقاء المشعات وتطوير علاقاتها بعضها ببعض مما ادى الى قيام بدايات المجتمعات العليا وانحلال المشاعة وبروز العائلة وقراباتها من مختلف علاقاتها المتشابكة من مثيلاتها كأساس للمجتمع المعقد .

ان المشاعة كانت ايضا عائلة وقرابات ، الا انها كانت تعيش بعزلة عن مثيلاتها فتواجه ما يحيط بها من الطبيعة وحدها لتستخلص منه باسلوب المتاح ما يقوم باودها .

ب - انتهى طور المشاعة البدائية بقيام مرحلة انتقال طويلة تطورت فيها قسمة العمل التي كانت قد ظهرت بوادرها في الطور المذكور ، واختصت كل جماعة بنوع من الانتاج ، وقامت بالتالي بين تلك الجماعات علاقات تبادل السلع واتسعت ، وظهرت الاسواق وتطورت ،

وقامت القرى ثم المدن ،واخذ الرق بالانتشار نتيجة لتطور الوسائل وتقدم الحرف: كانت ثمرة عمل انسان المشاعة بالوسائل المتوفرة لديه تسد بالكاد حاجاته البسيطة كي يبقى على قيد الحياة في تلك الظروف ، وعندما ارتقت الوسائل وارتقى معها اسلوب الانتاج واصبح بالامكان اقتطاع جزء من عمل الانسان ( بعد ان يترك له من عمله هذا ما يكفي لابقائه حيا ) برزت فائدة اخضاع الانسان لاستغلاله في توليد القيم وكان الرق اول شكل من اشكال استغلال الانسان للانسان . وقام الطور العبودي على هذا الاساس ،وظهرت الدول العبودية التي تضم مجتمعا او عددا من المجتمعات المعقدة :

" .. والحق ان كل مدينة كانت عديدة الحرص على استقلالها ، تصر عليه بالنواجذ ،وتستمتع بملك خاص بها تسميه باتيسي . او الملك الكاهن ،فتدل بهذه التسمية نفسها على ان نظام الحكم كان وثيق الصلة بالدين . وما وافى عام ١٨٠٠ قبل الميلاد حتى نمت التجارة نموا جعل هذا الانفصال امرا مستحيلا ( كما ان التجارة تجعل من المستحيل بقاء المشاعات البدائية في تبعثرها وانقطاعها بعضها عن البعض الآخر : من عندنا ) ،فنشأت فيها جميعا "امبراطوريات" ..

وكان الملك يخرج للحرب في عربة على راس جيش مؤلف من خليط من المقاتلين .. وكانت الحرب تشن لاسباب صريحة هي السيطرة على طرق التجارة والاستحواذ على السلع التجارية .. من ذلك ان منشو توسو ملك اكد اعلن صراحة انه يغزو بلاد عيلام ليستولي على ما فيها من مناجم الفضة وليحصل منها على حجر الديوريت لتصنع منه التماثيل.."*

---

* قصة الحضارة . وول ديورانت ص ٢٦ ، ٢٧ ع . ج ٢ فصل السومريين .

ان المجتمعات الانسانية بعد بروز الرق ، وبنتيجة تطور وسائلها ،وبالتالي بنتيجة نمو وازدهار علاقاتها ،مارت في هذا الطور نحو تشكيل جملة مجتمعات انسانية في كل منطقة متصلة على الكرة الارضية ،لا تجزئها حواجز جغرافية يصعب التغلب عليها واجتيازها بوسائل انسان تلك العهود : كالمحيطات مثلا والكتل الجبلية الهائلة والصحارى الواسعة . وقد تم قيام ثلاث جمل انسانية رئيسية في طور العبودية في المناطق الثلاث :

١ . منطقة البحر الابيض المتوسط المؤلفة من شواطئ هذا البحر والممتدة من جهة الى اقسام كبيرة من القارة الافريقية ، ومن جهة اخرى ،الى جبال هيمالايا وصحارى تركستان ومنغوليا .

٢ . منطقة القارة الهندية المحصورة بين المحيط الهندى وجبال هيمالايا .

٣ . منطقة الصين المحصورة بين المحيطين الكبير والهندى وهضبة التيبت وصحارى غوبي ومنغوليا وثلوج سيبريا ،وهي تتضمن ايضا الملايو والارخبيل الاندنوسي .

ومن المعلوم ان جملة المجتمعات الانسانية الطبقية تقوم على عدد من المجتمعات المختلفة التي يرتبط بعضها بالبعض الآخر بروابط كافية ودائمة تجعلها تتفاعل وتتناقض ، وتتحد تارة في دول وامبراطوريات ،وتنقسم اخرى الى دول وامبراطوريات اخرى ،تتصادق وتتحالف مرة ،وتتعادى وتتحارب مرة ثانية وهكذا .. انها العمليات الحياتية للجملة الانسانية ،العمليات التي تدفعها نحو النمو والتكامل، عمليات التكون ،ومن المفيد ان نلاحظ ما يلي :

اولا : ان المدنيات في المناطق الثلاث الآنفة الذكر سارت بشكل متواز طيلة العصور الاولى الطويلة من عهد الرق دون ان تؤثر الواحدة في الاخرى تاثيرا حاسما . فاعظم الامبراطوريات العبودية مثلا ما تعدت حدود منطقتها الى المنطقتين الاخيرتين : وقفت امبراطورية الاسكندر المكدوني عند حدود القارة الهندية وما مست ابدا حدود الصين . وصحيح ان المناطق الثلاث الآنفة الذكر تبادلت الهجرات البشرية الكبيرة والصغيرة حينذاك ، الا ان كل تلك الهجرات ما كان باستطاعتها في الدور العبودي ان توحد الجمل الانسانية في تلك المناطق في جملة مجتمعات انسانية عالمية واحدة . فالمهاجرون في الوقت الذي كانوا فيه يندمجون بشكل من الاشكال في مجتمعات مناطقهم الجديدة ( او كانوا فيه يشكلون مجتمعاتهم او جماعاتهم الخاصة بهم في مناطقهم الجديدة ) كانوا ينقطعون عن مناطقهم القديمة ، لضعف الوسائل وبعد الشقة . كذلك قامت علاقات تجارية بين المناطق الثلاث المذكورة ، الا ان هذه العلاقات ما كانت لتصل الى دمج هذه المناطق في اقتصاد عالمي واحد تتمركز قيادته في منطقة واحدة من الكرة الارضية كما حدث في الدورين : الاسلامي والراسمالي .

ثانيا : ان تبادل التجارب ومنجزات الفكر بين المجتمعات في كل منطقة من تلك المناطق ، وتوارث هذه التجارب والافكار ، من عصر الى عصر ، وتطويرها بمساهمة كل مجتمعات المنطقة ، بالبحث وبالتطبيق وبما ينتج من تراكم عن الممارسات اليومية لانسان المجتمع طيلة عصور وحقب تاريخية طويلة : كل مجتمع يساهم بمقدار امكاناته وحسب مزاياه وظروفه الخاصة ، نقول ان هذه التفاعلات بين مجتمعات

جملة انسانية واحدة ،تولد دوما مدنيات عالمية متعاقبة في هذه الجملة . وهذا امر يناقض ادعاءات المتعصبين المتعالين على الناس الذين اعتادوا على نسبة المدنيات العالمية الى شعب او عدد من الشعوب "المختارة" . فالمدنية اليونانية مثلا كانت مدنية عالمية، وما كانت تضم اليونان وحدهم ،فقد ساهمت في بنائها اقوام عديدة سبقتهم في المدنية ،كما ساهمت في تاويرها تجارب كل الاقوام التي احتكت بهم او خضعت لدولهم : "... وقصارى القول ان الآريين لم يبتدعوا صرح الحضارة ،بل اخذوها عن بابل ومصر . وان اليونان لم ينشئوا الحضارة انشاء لان ماورثوه منها اكثر مما ابتدعوه . وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين ،وجاءت الى مدنهم من مغانم التجارة والحرب ..." *

ومما لاريب فيه ان لكل مجتمع من مجتمعات المنطقة الواحدة خواصه ومزاياه ،الا انه ما كان باستطاعة مجتمع واحد من هذه المجتمعات ان يطور المدنية بمفرده وكان لابد له من ان يتفاعل مع المجتمعات الاخرى في منطقته ليتقدم ويساهم في تقدم من هم حوله . وكأن المجتمعات في المنطقة الواحدة روافد تاريخية نبعت من اصقاع وظروف تاريخية مختلفة ( من تلك المقاطعات المنعزلة التي كانت مبعثرة هنا وهناك في الارض الصالحة لحياة الانسان البدائي ) لتتكامل في النتيجة عند التقائها باتحاد وازدهار علاقاتها وتفاعلاتها المتقابلة المجتمع الكامل الذي هو جملة المجتمعات الانسانية في المنطقة .

---

* المرجع السابق ص ( ١٠ )

وعندما ننظر الى ابجديات منطقة من المناطق الآنفة الذكر ، عندما ننظر مثلا الى ابجديات منطقة البحر الابيض المتوسط ، نجدها تكاد تتطابق بالعدد وباللفظ ،في الوقت الذى لايمكن فيه العثور على ذات الشبه بمقارنتها مع ابجديات شرقي آسيا ( التي تطورت في مجتمعات المنطقة الصينية ) . كما ان جل كائنات الميثولوجيا لدى اقوام المنطقة الواحدة كادت ان تكون من اسرة واحدة بعلاقاتهـــا وسيرتها وتطورها . ولا عجب في هذا ،فآلهة الوثنية ( آلهة الدور العبودية ) تعبر في الواقع عن اكثر النماذج شيوعا في ابيات السادة قادة مجتمعات الدور العبودى ،وتعبر في تشابهها في مجتمعات هذا الدور ليس فقط عن ازدهار العلاقات بين هذه المجتمعات ،بل عن قيام جوهر مشترك لعالم موحد ايضا :عن قيام جملة مجتمعات انسانية واحدة في المنطقة الواحدة تجسد بنظامها العبودى تلك المعتقدات الوثنية . يقول ديورانت في قصة الحضارة ( ج١ ج٢ ص١٥٩ ) : "صار الآلهة في آخر الامر بشرا ـ او بعبارة اصح : اصبح البشر آلهة . ولم تكن آلهـــة مصر من الآدميين الا رجالا متفوقين او نساء متفوقات خلقوا في صور عظيمة باسلة ،ولكنهم خلقوا من عظام وعضلات ولحم ودم ،يجوعون ويأكلون ويظمأون ويشربون ،ويحبون ويتزوجون ،ويكرهون ويقتلون ،ويشيخون ويموتون ، شانهم في هذا شان آلهة اليونان سواء بسواء .. " .

ثالثا : ان العهود التاريخية الاولى التي تتالت على المناطق الثلاث الآنفة الذكر هي عهود متشابهة ،وان كان تطور المدنية قد جرى في تلك الاحقاب بشكل مستقل على العموم في كل منطقة مـــن تلك المناطق : كانت المشاعة البدائية في المناطق الثلاث تقلة بدء

قيام المجتمعات المعقدة . وانحلت تلك المجتمعات البسيطة البدائية بقيام دول وامبراطوريات الرق التي قامت عليها جمل المجتمعات في تلك المناطق . ثم انتهت جمل المجتمعات الانسانية الثلاث الى الالتقاء ، ثم الى التفاعل لتكوين جملة مجتمعات انسانية واحدة في كل الكرة الارضية . وقد برزت هذه الجملة العالمية بتكوينها الكامل وملامحها الواضحة في المرحلة العليا للراسمالية ،في طور الامبريالية الراسمالية .

كان طور الرق عهد الهجرات الكبرى والتنقل الكثيف للجماعات الانسانية والتفاعلات بين مختلف الاقوام لقيام بعض الامم او ارساء الاسس لقيام الامم في الادوار التالية للجملة الانسانية . فجملـــة البحر الابيض المتوسط مثلا كانت" .. تبدو للعين البعيدة الفاحصة كانها بحر ضخم يتلاطم فيه خليط من الآدميين ،يأتلفون ثم يتفرقون ، يستعبدون ثم يستعبدون ،ياكلون ويؤكلون ،ويقتلون ويقتلون الى غير نهاية .." * . وتنوعت المجتمعات بحسب ظروف نشاتها وظروف تطورها " .. واخذت بعض الدول في بحر الاجناس تتشكل .." ثم قامت الامبراطوريات الكبرى " .. ومن ورائها وحولها خليط من الشعوب البدوية .. وكان هؤلاء البدو طوال تلك الحقب التاريخية يشكلون خطرا يهدد الممالك المستقرة التي كانوا يحيطون بها من كل الجهات تقريبا .. وكان الجدب يدفع بهم من حين الى حين الى هذه الاقاليم الغنية لغزوها .." * لقد كان الانسان بدايته الحالي يزدهر بتقدمه المادي ومدنيته في الاقاليم الغنية بمواردها والمعتدلة باقليمها ،الاقاليم التي تسد بيسر

---

* المرجع السابق ص ( ١٠ )

العيش فيها ما كان ينقصه في تلك الحقب من وسائل وحيلة كوادى النيل والهلال الخصيب والواحات وغيره • الا ان هذه المناطق السهلة ما كانت حينذاك لتستوعب كل البشر ، اضف الى ان الانسان لا يقبل بالغرباء ياتون لمشاركته خيرات ارضه • لذلك تفاوتت مناطق الارض الماهولة باحوالها واحوال ساكنيها من البشر الذين كانت كل جماعة منهم مساقة الى التاقلم في معاشها مع ما يحيط بها من ظروف • وكان الاقتصام على الارض والثروات يصل في العادة الى الاقتتال والتفاني بين الجماعات • فاذا اخفقنا الى هذا الامر ما كانت غالبية البشر تلاقيه من صعاب واخطار كبيرة ( اجتماعية وطبيعية ) نجد ان من نجا وخرج من ذلك المعمعان الهائل الذى دام كل تلك الحقب الطويلة من التاريخ الانساني اكتسب خبرات واسعة وعميقة ومتشعبة •

ويمكننا ان نميز في الطور العبودى في جملة البحر الابيض المتوسط فئتين هامتين من البشر :

الاولى : انسان الحضر قاان المدن ومؤسس الدول والامبراطوريات العبودية •

الثانية : انسان البداوة المتنقل دوما ( بحثا عن الرزق ) في الاصقاع الصحراوية او فقيرة الموارد او صعبة المناخ ( كالصحارى والمناطق الجبلية والسهوب الباردة فيما وراء القوقاز وبحر قزوين واوربا الوسطى والشمالية ) • وفي مثل هذه المجتمعات كان الاقتصاد لا يقوم على انتاج الرق لتخلف الحرف فيها من جهة ولصعوبة استخدام الرقيق وعدم جدواه في ظروف عدم الاستقرار في مكان واحد وقلة مردوده وجناه في

في مجالات انتاج تلك المجتمعات* ( في مجالات الصيد مثلا وتربية الماشية وما شابه ) .

ولا يعني هذا التقسيم قيام حاجز يفصل هاتين الفئتين من البشر الواحدة عن الاخرى . فقد كانت بينهما على الدوام علاقات تشتد وتزدهر وتتشعب بمرور الزمن ،فتقوم العلاقات التجارية كما تقع التجاوزات بالغزوات والحروب فينهب مثلا اهل الحضر ( الذين كانوا يمثلون عالم المدنية حينذاك معالم الجنب الذى كان يدور حوله اولئك البدو الباحثين عن الرزق والمغانم بمختلف الوسائل اللينة او العنيفة ) نقول ينهب الحضريون " لتاديب " البدو ( الذين كانوا يمثلون العالم المتخلف في تلك الازمنة فيقدمون الى المتقدمين الصيد ومنتوجات الصيد وتربية الماشية وغيره في الاسواق او بنتيجة الحروب ). او ان البدو يتجمعون ليقوموا بغزو المناطق المدنية التي كثيرا ما كانت تسقط باياديهم فيقطنوها ويتحولوا بمرور الزمن فيها الى انسان متمدن . كما كانت تيارات اخرى تتالف من العبيد الآبقين جماعيا والمضطهدين والهاربين من قسوة النظام العبودى تخرج من المناطق المدنية لتلحق بعالم البداوة طلبا للحرية ولو بثمن معاناة مضاعف عيش البداوة ( وسنرى امثلة لهذا الامر فيما يلي من البحث ) .

ثم ان تخلف الانسان كان يقل بقربه من مناطق الحضارات وتعايشه ازمنة طويلة مع تلك الحضارات . فبدو الصحارى العربية مثلا لا يقارنون من حيث التقدم المادى والرقي الروحي بقبائل ماوراء القوقاز واوربا

---

* كانت فائدة الصيد في تلك المجتمعات البدوية تقتصر على امكان بيعه للمتحضرين ،فكان يطلب من قبلهما كما يطلب الصيد بالغزوات المتقابلة فيما بينها وبالاختطاف او الشراء ،فهو لا يشكل في اقتصادها الا سلعة في الوقت الذى كان فيه الصيد الاساسية المنتجة في المجتمعات المتقدمة آنذاك ( في مجتمعات الحضر ) الذى يوجه فيها انما سلعة .

التي ظل انسانها دهورا طويلة في حالة تخلف تردى بها في البربرية والتوحش بينما ما كان الاعرابي ( في الظروف الاجتماعية المواتية ) يقصر عن ادراك ارقى السويات المادية الحضرية في ضيامه ،وعن الغوص الى ادق المعاني والافكار • وكان العالم في كل منطقة من المناطق الثلاث التي ذكرناها اعلاه وهي : مناطق البحر المتوسط والهند والصين ،كان يشكل وحدة انسانية تقوم على جملة مجتمعات ( متقدمة ومتخلفة ) ترتبط بعضها ببعض باقتصادها ومشاكلها وغزواتها بحيث " تبدو للعين الفاحصة كانها خضم يتلاطم فيه خليط من الآدميين " حسب تعبير ول ديورانت •

جـ - الطور الاسلامي : ملك الانسان منذ بدايات العصر الاسلامي وسائل وخبرات واساليب متطورة نسبيا ،مما مكنه من التغلب على الحواجز التي كانت تفصل ما بين مناطق الحضارات الانسانية • فالدولة العربية غدت عمليا كل منطقة البحر المتوسط : من اللوار الى الصين وضمت كذلك مساحات واسعة من شبه القارة الهندية • وكانت الاساطيل التجارية العربية تجوب البحار والمحيطات ، فتصل مرقا الى اندنوسيا والفلبين واليابان وسواحل الصين الشرقية ،في الوقت الذى كانت فيه القوافل البرية العربية تغز في اصقاع العالم القديم : من شرقه الى غربه ،ومن شماله الى جنوبه • من سهول روسيا واواسط اوربا الى اواسط افريقيا وشرقيها وغربيها ،ومن غربي آسيا الى اواسطها والى الهند والصين • فانهارت لذلك تلك الحواجز الجغرافية التي كانت تفصل بين جمل المجتمعات الانسانية الثلاث ،واخذت هذه الجمل بالتفاعل النشيط فيما بينها لتنتهي في النتيجة الى الاندماج في جملة عالمية

واحدة للمجتمعات الانسانية في الدور الامبريالي الراسمالي : " ..في اسبانيا لم تات النهضة من الشمال مع القبائل البربرية وانما اتت من الجنوب مع الفاتحين العرب .. لقد كانت حملة حضارية .. ومن هنا اتت الينا هذه الثقافة الشابة القوية سريعة التقدم بطريقة مذهلة ،والتي ما تكاد تولد حتى تتفوق .. بل انها جلبت معها التقاليد الهندية العظيمة وتراث الفرس وكثيرا من الامور المقتبسة من بلاد الصين الغامضة ،كان العرق هو الذي يقتحم اوربا ..." * .

هنا لابد لنا من التاكيد على الامر الهام التالي وهو : ان كل دور من الادوار الانسانية ،من المشاعة حتى الادوار العليا ،هو قبل كل شيء دور في نمو وتكامل ذلك الكائن الكلي ( تلك المنظومة المادية العاقلة ) التي سميناها جملة المجتمعات الانسانية فالدور الانساني كما قلنا اعلاه لايقتصر على مجتمع واحد او دولة واحدة من هذه الجملة التي برزت اصولها في الدور المشاعي ثم تكونت في الدور العبودي مختلف المجتمعات المعقدة فيها مع مختلف العلاقات الداخلية لهذه المجتمعات ومختلف الارتباطات فيما بين بعضها والبعض الاخر . وكانت مقسمة كما رأينا اعلاه على مناطق البحر المتوسط والهند والصين . ثم اتحدت اقسامها هذه في جملة عالمية واحدة في الدورين التاليين : الاسلامي والرأسمالي الخ ... ثم ان المراحل الباقية في كل عصر من عصورها تتمثل بمدينة مجموعة من الدول الاكثر تقدما

---

* في ظل الكاتدرائية لبلاسكو ايبانيز . وقد وردت هذه العبارة في محاضرة جارودي المنشورة في العدد الاول لعام ١٩٧٠ من مجلة الطليعة المصرية .

والمهيمنة على الجملة بشتى الاشكال ،فتكون هذه المدينية كما قلنا قبلا مدنية الجملة في ذلك العصر ،اى مدنية عالمية . ففي الدور المبودى مثلا تعاصرت وتتالت مدنيات الرق للفراعنة والبابليين والآشوريين والفينقيين والفرس الخ .. وهيمنت هذه المدنيات في الدور المذكور على جملة مناطق البحر المتوسط بتفاعلاتها المختلفة فيما بينها وبتوارثها الواحدة من الاخرى وبمد حدود امبراطورياتها تارة ،وبنشر تجارتها وثقافاتها تارة اخرى . ومن الطبيعي ان لا تكون المجتمعات الطبقية في الجملة الواحدة في سوية واحدة من التقدم المادى والروحي : راينا اعلاه ان البدو كانوا في هذا الدور الذى نحن بصدده يحيلون بالمناطق المدنية من كل الجهات ويدورون حولها كما تدور التوابع حول الشموس . ولقد وجدت بقايا العلاقات المبودية ،بل المشاعلت البدائية ،منتشرة هنا وهناك في جملة المجتمعات الراسمالية ،فضلا عن المجتمعات الحرفية القائمة في كل العالم المتخلف من هذا الدور . ذلك لأن علاقات الانتاج لا يمكنها في النتيجة ان تتجاوز بسويتها سوية تطور وسائل الانتاج المتوفرة بيد المنتجين ،حتى لو كان هنالك اسلوب ووسائل انتاج ،وبالتالي علاقات انتاج اكثر تطورا في مكان آخر من الجملة الانسانية . الا ان اكثر المجتمعات تقدما هو الذى يسود في الجملة بسيادة نظامه على كل الانظمة الاخرى فيها فيحتويها بشكل من الاشكال المناسبة بحيث تصبح امتدادا له في اوضاعها . ونصل الى النتيجة التالية من هذه الملاحظة :

ان الانظمة المتخلفة التي كانت تقوم في اوربا في القرون

الوسطى لاتصلح ابدا كمقياس للطور الانساني في تلك الايام ،في الوقت الذى كان يقوم فيه نظام متقدم جدا في مكان آخر من جملة المجتمعات الانسانية ،وهو النظام الاسلامي . اضف الى هذا ان من المفروض ان نجد في الاقطاع الاوربي ( فيما لو سلمنا جدلا فقلنيا مع القائلين بان الاطوار الانسانية المعروفة هي اطوار مجتمعات متفرقة لارابط بينها كما يدعون وليست اطوار نشوء وارتقاء الجملة الانسانية برمتها كما نقول نحن في بحثنا هنا ،وبالتالي فيما لو كان النظام الاقطاعي المذكور هو المتقدم على النظام العبودى الذى سبقه في مناطقه ذاتها في نظامي اليونان وروما ) نقول ان من المفروض ان نجد في هذا الاقطاع فيما لو سلمنا بهذه الامور مجتمعات تفوق برقيها تلك التي كانت قائمة في العهدين اليوناني والروماني ( سيما من الناحية الفكرية حصيلة التقدم المادى ) ولكننا نجد في الواقع عكس هذا الامر تماما عندما نقارن مجتمعات اوربا القرون الوسطى الغارقة في ظلمات الجهل باى مجتمع تزدهر فيه المدنية في الدور العبودى : من قدماء المصريين والبابليين والفينقيين حتى الرومان الذين دمرهم اولئك البرابرة الاقطاعيون . ان ذلك الطور ( طور تفاعل جمل المجتمعات الانسانية الثلاث بنشاط لم يسبق له مثيل وسير هذه الجمل في اتجاه تشكيل جملة عالمية واحدة في الكرة الارضية ) كان طور التشكيلة الاسلامية ، بملاقاتها وانظمتها ،في منطقة البحر الابيض المتوسط . هذه التشكيلة التي " حيكت وتحاك حولها مؤامرات الصمت المنظمة للغاية ( حسب تعبير جارودى في محاضرته المشار اليها اعلاه ) مع التشكيلات

المتقدمة ايضا ،التي كانت قائمة في شبه القارة الهندية وفي الصين حينذاك ، كانت هي القائدة عالميا . اما المجتمعات الاوربية فكانت في تلك الايام بتشكيلاتها الاجتماعية المتخلفة تابعة لذلك العالم المتقدم ،عالم الاسلام ،تماما كتبعية العالم الثالث اليوم ( بتشكيلاته المتخلفة الحالية ) للعالم الغربي : " .. ان الفتح العربي، قبل ازدهار ثقافته الخاصة به ،قد خلق - بسبب اتساعه - الشروط اللازمة لتجديد الحضارة وانطلاقة شابة جديدة للعالم . لقد خلق الفتح العربي الشروط الاقتصادية والاجتماعية للحضارة الجديدة وذلك بازالة فوضى الاقطاع وتدرجاته الطفيلية .. ان العامل الحاسم للنصر هو ان الفاتح العربي كان يجلب معه الى عالم عبودي منحل للغاية او عالم اقطاعي مقفل الاوصال متحجر ،اشكالا راقية من التنظيم الاقتصادي والاجتماعي يلتزم بها الجماهير العريضة لانها تتفق مع احتياجاتها ..ومن القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر نشأت وازدهرت اغنى واجمل حضارة خلال العصور الوسطى . وبينما كانت شعوب الشمال ( شعوب اوربا :من عندنا ) تتناحر في حروب دينية وتتصرف كالقبائل الهمجية كان شعب اسبانيا قد وصل الى ثلاثين مليون .. تدفقت فيه اكتشافات جديدة واقامت جديدة خلاقة .. لقد اطاح الفتح العربي بتاثير البورجوازية التجارية في المدن بالابنية الاجتماعية المستندة الى العبودية والمتسمة بالجمود والعقم ، والتي فرضتها السيطرة الرومانية ثم السيطرة البيزنطية . يقول جان بيرين : ان الفتح العربي قد سبب انتعاشا حقيقيا للاقتصاد العالمي .. فاضاف الى سمو العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ،لحضارة

تجارية في مواجهة مجتمعات عبودية واقطاعية سموا اخلاقيا يدور على السماحة ،وسموا عقليا يدور على روح نقدية في مواجهة تعصب استبدادي وخرافيقي ،ولهذا ارتاى انجلز - رفيق ماركس - ان المفكرين العرب هم السلف البعيد للانسكلوبيديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر . وفي كتابه " دياليكتيك " يقول في حديثه عن عصر النهضة : ان لدى العرب الرومانية فكرا متحررا صافيا ماخوذا عن العرب وعاما بالفلسفة اليونانية التي اكتشفت مؤخرا. ثم راح الفكر يتاصل رويدا رويدا ويمهد لظهور مادية القرن الثامن عشر ..." * .

ان ما يميز الاساس الاقتصادي لهذا الاور الذي نحن بصدده ليست اذن علاقات الانتاج الاقطاعية السائدة في اوربا المتخلفة آنذاك ،تماما كما لايميز الاساس الاقتصادي للعصر الراسمالي بعلاقات الانتاج التي كان يقيمها مهراجات الهند تحت التاج البريطاني!.. فالحرفة بتقدم الوسائل كانت تتحرر من يد الرقيق ليمارسها الاحرار اكثر فاكثر منذ العهود الاخيرة للنظم العبودية التي كانت مع ذلك تستمر بتكبيلها بقيودها وبمحاصرتها بحواجزها . وقد حطم النظام الاسلامي وازال تلك القيود والحواجز فاتسعت في ظوره كذلك قسمة العمل الحرفي الحر اتساعا هائلا ،وازدهرت بالتالي حينذاك الحرف والتجارة في كل العالم المتقدم سيما منه الذي كان يطلق عليه اسم دار الاسلام ،الامر الذي كان لابد منه لبروز المانيفاتورة فيما بعد ،وبروز العصر الراسمالي بالتالي ( مكننة الانتاج).

---

* محاضرة جارودي المار ذكرها .

اى ان الذى هيأ لتكنيك المانيفاتورة ليس الاقطاع الاوربي المتخلف، وانما الممارسات الطويلة للتجار والحرفيين الاحرار العرب : ان "مزابل" الاقطاعيين على "دفئها" لا تصلح ابدا لاحتضان بيضة الراسمالية ،لاحتضان المانيفاتورة ،وان صلحت لاحتضان بعض الآراء البليدة المتحصبة الحمياء التي لم يفتحها النور الذى كان يسطع في يوم من الايام في هذا الشرق المقهور ٠ان اقتصاد الاقطاع بشكله الاوربي في القرون الوسطى ،هذا الاقتصاد الطبيعي الذى كانت فيه الاسرة تستهلك ما تنتجه من قيم استعمال فجة ليس فيها اى اثر من آثار الابداع ،هذا الاقتصاد الآسن الذى لم تحركه ولم تطهره تيارات الاسواق التجارية ،لايملك اية قاعدة مادية تصلح لبروز المانيفاتورة ٠ وما كان صدفة ان برزت هذه الاخيرة ( اول ما برزت في اوربا ) على سواحل البحر الابيض المتوسط ،في جنوة والبندقية ،في المدن التجارية التي كانت على صلة عضوية بالعالم الاسلامي ،عالم الحرف المتقدمة والتجارة المزدهرة ( كانت جزءا لا يتجزأ منه بحكم ازدهار علاقاتها به وان كانت جغرافيا قد عدت فيما بعد ،في العصر الراسمالي ،من اوربا ) ٠ ونجد ايضا في ايامنا هذه ان الثورات الملحة الى بناء الاسس المادية الاعدادية لدخول عصر الاشتراكية المقبل وثورات التحرر على العموم ) في مناطق العالم المتخلف لا تقوم على اساس العلاقات المتخلفة في اقتصاد هذه المناطق ،بل تقوم على اساس ارتباطها بالعالم المتقدم ،الارتباط الذى يسبب قيام مؤسسات راسمالية مناسبة فيها ٠ والخلاصة ان هذا الطور ،الطور الذى اصطلح على تسميته طور الاقطاع ،كان

كان في الواقع طور الحرفة الحرة ( الطور الاسلامي ) ،الحرفة الممتدة الى الريف: حتى الانتاج الزراعي كان على العموم وفي غالبيته انتاجا حرفيا حرا في البلاد المتقدمة حينذاك ،كما هو الآن ( في عصرنا ) انتاج راسمالي في البلاد المتقدمة : الفلاح وعائلته ومن يستاجرهم في بعض الحالات،كانوا يقومون بزراعة الارض ،بادوات حرفية واسلوب حرفي ،ويجنون المحصول الذي كان يسلم الى التاجر صاحب الخان او في السوق ،تماما كاي حرفي حر يقوم وعائلته وصناعه بانتاج قيم الاستعمال المصنوعة ليسلمها الى التاجر في النتيجة كبضاعة معدة للسوق . وهذا لا يتنافى مع ظهور الملكيات الزراعية الكبيرة في ذلك العصر ( كما لا تتنافى هذه الملكيات الزراعية الكبيرة مع الانتاج الراسمالي في عصرنا الحالي حيث تحتوى العلاقات الراسمالية بشكل مباشر او غير مباشر في البلاد المتقدمة والبلاد المتخلفة كل شكل من اشكال الانتاج ) فاسلوب الانتاج يبقى في هذه الملكيات اسلوبا حرفيا حرا او محتوى بالاسلوب الحرفي الحر مفتوحا على السواق، وليس مغلقا على نفسه كما في الاقطاعيات،والايدي العاملة فيه باكثريتها ايدى فلاحية حرفية حرة او محررة ( من الموالي ) تنتج على اساس المحاصة بينها وبين صاحب الارض او التاجر صاحب الخان الذي يمول المشروع بالقروض النقدية او العينية ( كالبذار وغيره من لوازم الزراعة ) . اما الطبقة الحاكمة فكانت طبقة التجار او من يستند على هذه الطبقة : كان قادة الفتح العربي هم بذاتهم الذين كانوا من قبل يقودون القوافل التجارية ،وكانت العلاقات الحاكمة

للامبراطورية العربية من ابناء واحفاد اولئك التجار .. ثم ان الاقطاع كان وما يزال ابدا يقوم على علاقات انتاج متخلفة تبرز دوما في المجتمعات المتخلفة او الآيلة الى التدهور والتخلف: ان الاقتصاد الدابيمي للاقطاع في اوربا القرون الوسطى كان اكثر تخلفا من اى اقتصاد تجارى في اى طور من اطوار العبودية . كما ان العلاقات الاقطاعية وجدت وتوجد في المجتمعات المتخلفة للنظام الراسمالي ،وقد استفحل الاقطاع في الامبراطورية الاسلامية في طور الانحطاط : في اعقاب غزوات القبائل التترية وغيرها الآتية من اواسط آسيا انهار تماسك الدولة العربية كدولة عالمية تماما كما انهارت الامبراطورية الرومانية تحت ضربات قبائل الجرمن ،فقامت انظمة اقطاعية متخلفة في العالمين : في اوربا بعد انهيار روما وفي الشرق بعد انهيار الخلافة وسقوط هيبتها . ويجب ان لا يغرب عن البال ان الانتاج الزراعي في كل مجتمع ،في اى طور من اطوار الانسانية ، لا يمثل الا جزءا ،الا قطاعا ،من الانتاج الاجمالي للمجتمع .وفي عصر ازدهار الحرفة والتجارة، كما في عصر ازدهار الانتاج الراسمالي ، يكون مركز ثقل الانتاج ومحركه في المجتمعات المتقدمة في القطاعات الصناعية ( الحرفية او الراسمالية ) حيث تنتج وسائل الانتاج والقيم الاخرى المتممة على اساس من المعارف والمهارات هي حصيلة التقدم الانساني ،وليس في الزراعة . لذلك نجد انه لا يبنى على علاقات الانتاج الزراعي الاقطاعي اى طور عالمي ،وان بني على هذه العلاقات السنة في كل الاطوار والعصور تخلف مجتمع .

قلنا ان الاطوار الانسانية من المشاعة حتى الاطوار العليا

ما هي الا مراحل نمو وتكامل ذلك الكائن الذي سميناه جملة المجتمعات الانسانية • ونجد ان التجار العرب قد جاسوا عليها كل العالم القديم بسطح مرفيي العالم المتقدم حينذاك ( مرفيي البحر الابيض المتوسط والهند والصين ) • فكانت النتيجة ان تحاشت تلك الحواجز الجغرافية الصعبة التي كانت تقسم العالم الى مناطقه الثلاث التي مر ذكرها • وقد اقامت الامبراطورية العربية الاسلامية الاسس التالية لوحدة العالم القديم ( قبل الكشف عن القارة الامريكية ) :

- ضمت في نظام واحد ( في نظام الخلافة الاسلامية ) بلادا تمتد من حدود الصين الى فرنسا عبر اواسط آسيا ومناطق الهند الشمالية والافغان وفارس والقفقاس والشرق الادنى وشمالي افريقيا ( حتى اواسطها ) ومعظم جزر البحر الابيض المتوسط •

- اقامت شبكات دائمة من الاتصالات التجارية بخطوط القوافل البرية والبحرية تغطي العالم القديم •

- ان حتى العلاقات السياسية والاقتصادية التي ربطت دولة الخلافة بالدول الاخرى في العالم المعروف حينذاك كانت تقوم على قوانين المعاملات المحددة بالشرع الاسلامي • ذلك لان دول العالم كانت مدعوة لقبول هذا الاساس في علاقاتها مع دولة الخلافة بسبب قيام هذه الاخيرة بدور الوسيط العالمي في تلك العصور • الامر الذي اتاح للعالم ان يرتبط حينذاك بعلاقات دولية تقوم على اساس موحد ومستمر ،وان يخضع لنظام تجاري شامل يقوم على شريعة واحدة هي فقه المعاملات الاسلامي • ولقد ازدهرت الاجتهادات الفقهية واتسعت

آفاقها الى حدود لم تعرف من قبل ابدا ، ذلك لانها ما كانت تدور حول مواضيع محلية ضيقة ولا تصدر من ابراج عاجية ،وانما كانت تتناول مسائل تتعلق بامبراطورية عالمية وبعلاقات هذه الامبراطورية بكل دول ذلك العالم الذي شاهد بهذا لاول مرة شريعة موحدة معترف بها قانونيا او عمليا من قبل كل دولة تقريبا . وان الاسلام قد امتد الى اصقاع بعيدة في القارتين الافريقية والاسيوية ،امتد مثلا الى اواسط وغربي افريقيا كما امتد الى اندنوسيا والملايو والفلبين والصين ،وذلك فقط بقوة ازدهار العلاقات الآنفة الذكر وليس بقوة الفتح .

ان طور الحرفة المرة ،الطور الاسلامي ،يمثل اذن مرحلة انتهاء عزلة المناطق العالمية الثلاث الآنفة الذكر وبروز جملة المجتمعات الانسانية في العالم . فهذا الطور يمثل اذن مرحلة حاسمة في تطور ونمو هذه الجملة . اما الاقطاع الاوربي فمن الواضح انه لا يمثل اي شيء يستحق الذكر في مجال تكونها : لم يكن لهذا الاقطاع اي اثر عالمي في تلك الايام ،وقد انحصر في منطقته ( اوربا ) فسبب لها التخلف ،فلا يمكن بالتالي تصويره كطور انساني عالمي ( وتقدمي بالنسبة الى الطور العبودي .. ) . وقد سبق الطور الاسلامي مرحلة اعدادية استمرت قرونا طويلة قامت فيها ثورات عديدة ضد نظام الرق كان من ابرزها واشدها تاثيرا ثورات التوحيد الدينية ،كما تطورت اثناءها وسائل الانتاج الذي مال ثقله اكثر فاكثر نحو انتاج الاحرار في الوقت الذي تفاقم فيه تفسخ النظام العبودي .

د ـ <u>الطور الراسمالي</u> ـ تمت في هذا الطور كما سبق وقلنا عملية

تكون الجملة الانسانية العالمية التي ضمت كاجزاء عضوية فيها كل المجتمعات الانسانية على اختلاف تنوعها واختلاف مستوياتها : من مجتمع العائلة الى مجتمع الامة مرورا بمجتمعات المدن والاقطار والدولة . والراسمالية ما كانت نقيضة القطاع بشكل خاص ،بل كانت نقيضة الحرفة الحرة ،ثورة على نظام الحرفة الحرة السائد عالميا حينذاك . لقد كانت " ضربة في اضعف حلقات النظام الاسلامي العامل " ، ضربة في اوربا : قامت المؤسسات الاولى للنظام الراسمالي (المانيفاتورة ) في ايطاليا المطلة على الشرق ( المناطق المتقدمة من عالم الحرفة الحرة حينذاك ) ،ثم امتد تيار هذه الثورة في اتجاه المقاومة الاقل لها من ذلك العالم ،في اتجاه اوربا المتخلفة في تلك الايام . وعندما كانت الراسمالية ،اثناء هذا السير تصادم بالعقبات المحلية ،بالتخلف الاوربي الاقطاعي ،فانها كانت في جوهر هذا التناقض الظاهري تناضل ضد نقيضها الحقيقي القائم في العالم المتقدم : ضد الحرفة الحرة المزدهرة في بغداد والقاهرة ودمشق وغرناطة وسمرقند . ان رحلات البرتغاليين وغيرهم من الاوربيين مثلا للبحث عن طريق الهند ما كانت للتخلص من هيمنة الجهل والجمود المنتشرين بين اقطاعيي اوربا ،ما كانت تهدف بشكل خاص لنقض اوهام الجهال الرجعيين المتباين بوجود الجحيم فيما وراء افق المحيط ،بل كانت حربا لازالة سيطرة العرب والمسلمين على الطرق الكلاسيكية للتجارة العالمية .

كانت النهضة الراسمالية الاوربية اذن ثورة في جملة المجتمعات الانسانية على اسلوب الحرفة الحرة وعلى النظام العالمي للتجارة

القائم على هذا الاسلوب. وقد مهد الى هذه الثورة الدمار الشامل الذى اصاب مناطق المدنية والتقدم في جملة المجتمعات حينذاك :

- بالغزوات الصليبية .
- بالحروب الاهلية بين مختلف الممالك الاسلامية .
- بالاجتياح المغولي المدمر لاواسط آسيا الاسلامية ،والعراق وسورية ،والصين ، والهند .

واذا كان من نتيجة الغزوات الصليبية احتكاك الاوربيين مباشرة مع المدنية في الشرق العربي ،وبالتالي نقلهم ماقتبسوه الى اوطانهم مما ساهم مساهمة كبيرة في اقامة الاسس المادية للثورة الصناعية الراسمالية ،فان الاجتياح المغولي لم ينتج الا التخلف بعد ان زرع الدمار في العالم .

وابتدأت مرحلة الانتقال الى اسلوب الانتاج الراسمالي . فالانتاج الحرفي الحر تطور وازدهر في العصر الاسلامي ،وانتقل في النهاية الى اوربا حيث اخذ شكلا جديدا هو اسلوب التعاون الراسمالي البسيط* . ففي هذا الاسلوب كان التاجر يجمع في مكان واحد عددا من الصفيلة الماجورين الذين كانوا يقومون جميعهم بعمل من نوع واحد** . وكان هذا الاسلوب الانتقالي يحقق وفرا في

---

* Cooperation Capitaliste Simple

** ان هذا الاسلوب معروف منذ العهد الروماني ،الا ان الصفيلة كانوا من العبيد يجمعهم السيد في مشغل مخصص لغرض الانتاج ومناسب له ويسمونه قيصرية باسم المشاغل التي كانت الدولة الرومانية تقيمها لمختلف الاغراض .

الكلفة ومزيدا من المردود في العمل بالنسبة الى الاسلوب الذى سبقه والذى كان سائدا في الشرق عندما كان التاجر يمثل الحرفيين في بيوتهم بعد ان يوفر لهم المواد الاولية، بينما يتكفلون هم بباقي وسائل الانتاج :الادوات ومكان العمل وغيره ،فيكونون بهذا وضع يسمح لهم بحرية اوسع تجاه التاجر الذى يتعامل معهم .

ان الخطوات التي تلت اسلوب التعاون البسيط الآنف الذكر كانت المانيفاتورة حيث يقسم العمل الواحد الى عناصر اكثر بساطة ينجز كل واحد منها عامل مختص . وقد قامت على هذا الاسلوب المرحلة الاولى من الدور الراسمالي ،مرحلة الامبرياليات التجارية الراسمالية : البرتغالية ،والاسبانية ،والهولندية ،والانجليزية ،والفرنسية ،في الهند واميركا وافريقيا . وفي هذه المرحلة قامت الثورة البورجوازية في انجلترا بقيادة كرومويل ،كما قامت الاصلاحات البورجوازية على يد الكردينال ريشليو ويد خليفته مازاران في فرنسا . وكانت قد سبقت تلك الثورة وهذه الاصلاحات ثورات فكرية ضد التبعية الجامدة لكل ما هو قديم : الثورات البروتستانتية ضد الكنيسة الكاثوليكية مثلا . وقد استهدفت الاصلاحات الثورية ازالة العوائق الاقطاعية امام تقدم الاسلوب والسوق الراسماليين ،وارغام الامراء الاقطاعيين على الانسجام مع متطلبات العصر الجديد .

واتت المرحلة الثانية للطور الراسمالي ،مرحلة الآلة البخارية في اواخر القرن الثامن عشر ،وقامت الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية التي عمت اوربا كلها وقضت على ما بقي من الحواجز الاقطاعية التي يمكن ان تقف امام تقدم وتوسع الاسلوب الراسمالي .

واخيرا اتت مرحلة الاحتكارات الكبرى في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر كما هو معروف وبين في البحث الشهير للينين : الامبريالية المرحلة العليا للراسمالية • وهذه المرحلة تقابل عصر الكهرباء والبترول والمحركات الكهربائية والانفجارية • الا ان الاحتكار لا يخص فقط هذا العصر ،وانما عرف منذ اقدم عصور التاريخ ،منذ عرف الانسان الامبراطوريات لانه يشكل اساسها المادى • ففي المرحلتين السابقتين مثلا كانت المانيفاتورة كالآلة البخارية حكرا للمنطقة الاوربية دون سائر انحاء العالم ،وهذا على الرغم من قيام التنافس "الحر" بين مختلف المنتجين في اوربا • اذ ان هذا التنافس هو تنافس داخلي في منطقة الانتاج الراسمالي الذى كان بمجموعه احتكارا بالنسبة لبقية العالم • والتنافس امر لابد منه في الطبقة السائدة من كل مجتمع طبقي لاقتسام القيمة الزائدة الكلية الحاصلة في هذا المجتمع ،وهو يؤدى دوما الى تراكم المال في ايدى اسر محدودة العدد حتى يصل الى درجة الاحتكار • وهذا ما كان يحدث من امور في اوربا في العصور الاولى للراسمالية عند قيام امبراطورياتها حينذاك • فاسرة ميديتشي في فلورنسا مثلا كانت تملك ثروة ضخمة وتشرف على مجالات واسعة ومتنوعة في عالمي الاقتصاد والسياسة • وقد اصبحت هذه الاسرة " في خلال القرن الخامس عشر اهم مصدر تمويل في اوربا • وكانت تستخدم النقود في الحصول على السلطة السياسية ،وكان لها تاثير كبير على مجريات التاريخ في زمن الصراعات بين لويس الحادى عشر في فرنسا ،وادوار الرابع في انجلترا ، وشارل الشجاع في بورغونديا • وقد ذاع صيت مصرفيي فلورنسا في كل اوربا •

وكثيرا ماسدوا النقص في خزانة من افتقر من الامراء ،وقاموا بتقديم كل انواع تسهيلات تبادل النقود . وكانت لهم فروع في كل اوربا .. وعلى نفس القدر من الاهمية كانت ايضا اسرة فوجر في اوغسبرغ ، التي اقرضت في القرن السادس عشر مبالغ ضخمة الى الامبراطور شارل الخامس . وفي الواقع ،فانه دون مساعدة اسرة فوجر ،لم يكن من المحتمل على الاطلاق ان ينتخب شارل امبراطورا رومانيا مقدسا .. وقد مولت اغلب حروبه عن طريق قروض هذه الاسرة ..." *

ويرتكز الاحتكار في كل مرحلة من الاطوار الطبقية لجملة المجتمعات الانسانية على اساس مادى مناسب ،الا انه يشكل دوما نهاية المرحلة التي يقوم فيها لانه اعلى اوجهها المادية . فبلوغه لابد من ان يكون خلال زمن مناسب من المرحلة الراهنة تتهيأ فيها اسسه المادية عبر التنافس بين منتجين صغار كثر ،والتقدم في الوسائل والاساليب . وعند قيامه يصبح التنافس والتناحر بين قوى مادية عملاقة تسعى كل منها الى التغلب على خصومها بالعمل بما لديها من امكانات مادية كبيرة على تطوير وسائلها ،وعلى الركض لوضع اليد على منابع القيم والثروات بكل الوسائل التي من اولها بناء الامبراطوريات واستعباد الشعوب بعد اخضاع واستعباد شعب الوطن الام . والاحتكاريون عندما يتسابقون في تطوير وسائلهم اثناء تنافسهم وتصارعهم مع قيامهم باستعباد الشعوب وبالتالي معاداتها فانهم في ذات الوقت يسلكون الطريق المؤدي الى نهاية مرحلتهم التي قد تكون آخر مرحلة في طورهم القائم في الجملة الانسانية .

---

* مجلة المعرفة . العدد ٩٣ عربي ص ١٤٨٤ - ١٤٨٥ .

فنظامهم ككل نظام مادى لابد من ان يصل الى نهاية لوجوده عبر كل الاحداث التي يقوم عليها هذا الوجود بالذات وبدفعها ( عبر حياته التي توصله الى نهايته المحتومة ) .

وقام الاحتكار الراسمالي في اعقاب مرحلة التنافس الحر بين المنتجين الراسماليين اصحاب المعامل والورشات الصغيرة عندما بلغ التقدم في الوسائل والاساليب في قطاعات الانتاج الحاسمة في البلاد الصناعية القوية حدا من الاتساع والتعقيد بحيث لايتمكن معه من الثبات امام المنافسة الا القلة القادرة من المنتجين الذين اخذ تراكم القيم في حوزتهم بالتفاقم مع امتداد تمركز السطوة الاقتصادية بين ايديهم . وكان اساسه كما هو معلوم امتزاج راس المال النقدى المصرفي براس المال الصناعي ،كما كانت نتائجه في جملة المجتمعات الانسانية اقتسام العالم من قبل المستعمرين وظهور الامبراطوريات الراسمالية الاحتكارية الكبرى . وتميز قيامه ببلوغ البحوث والمنجزات في مختلف فروع العلم والتكنولوجيا سويات رفيعة اخذ معها التقدم شكل ثورة علمية ـ صناعية . فظهرت حينذاك مثلا اول المحركات الانفجارية ومحركات الديزل التي تعمل بالبترول كما صنعت النماذج الاولى للطائرات . وبدأ استعمال الكهرباء يتعمم في البلاد المتقدمة نتيجة التطور في بناء السدود على الانهار وفي تحويل الطاقة الحرارية للفحم الحجرى الى طاقة كهربائية . وصنعت مختلف المكنات الدقيقة في مختلف فروع الانتاج الصناعي نتيجة للتقدم الواسع في بحوث الميكانيك الخ .. اما في المجالات النظرية فقد انجزت اكتشافات حاسمة في المجالات الكهرطيسية والفيزياء الذرية

وبحوث النشوء والارتقاء الخ .. وكان يقوم الى جانب التقدم الكبير للفكر الانساني في علوم الاجتماع والفلسفة والاقتصاد والادب مع تولد الفكر الاشتراكي العلمي كحصيلة لتقدم الفكر الانساني حينذاك.

ان جملة المجتمعات الانسانية السابقة تتصف بنمو مجتمعاتها نموا غير متساو ،متغير الوتيرة من زمن الى آخر ،غير مقيد بنظام متناسق، فتعمل به الصدف تارة في اتجاه واخرى في اتجاه آخر. فما رايناه مثلا قبل هنيهة من تقدم مادى كان فقط في بعض المجتمعات الاوربية وفي الولايات المتحدة الاميركية واليابان ،اما بقية العالم فكان غارقا في الفقر والجهل والجوع. فاذا اخفقنا الى هذا الامر ما يحدث في هذه الجملة من تناقضات ومشاحنات وصراعات لاسيما في مرحلتها الاحتكارية من الطور الراسمالي نجد ان توازنها اثناء تقدمها التاريخي هو توازن غير مستقر. فتقع فيها الازمات من حين الى آخر ، في هذه الجهة منها او تلك. وقد تكون الازمة فيها عامة تكتنفها كلها. والازمة تعني : ان نوعا او عددا من انواع العلاقات بين مجتمعين او اكثر ،او داخل مجتمع او اكثر ،اصبح بحكم تغير الواقع المادى غير صالح للاستمرار ولا بد من تعديله او تغييره لتجاوز الازمة. وعندما لا تستطيع الدبلوماسية او الادارة بوسائلها «الناعمة» ( المدعومة طبعا بذراع العنف المستعد للتدخل ) ان تصل الى حل مناسب ،فان الازمة تستفحل وينفجر الصراع المسلح : الحرب بين الدوارى ،او الثورة على الدوارى ،ذلك الصراع الذى يجب ان يغير في العلاقات القائمة في الجملة ( او في جزء منها ) لتقوم اخرى اكثر ملاءمة للواقع.

ان الجملة الانسانية عندما قام النظام الاحتكارى الراسمالي

في اواخر القرن الماضي فقدت توازنها وتفاقمت تناقضاتها واستفحلت عندما تم اقتسام العالم بين الاحتكاريين : من جهة حصل بعض الضواري ( الانجليز والفرنسيون والاميركان ) على معظم الغنائم الاستعمارية ، بينما لم يحصل بعضهم الآخر ( الالمان ) على شيء من الناحية العملية . ومن جهة اخرى كان القهر الاستعماري يسحق الانسان في كل انحاء الجملة الانسانية تحت ثقله الرهيب . وكانت هذه الامور تقع في ظروف تقدم علمي وتكنولوجي عاصف يدعو الى تجميع قدرات الانسان في مجاميع متعاونة متناسقة وليس في مسخ واجهاض هذا التجميع باحتكارات يتصرف بها افراد قلائل ويسيرونها حسب مصالحهم واهوائهم. وكانت النتيجة قيام حالة في الجملة الانسانية استحالت معها دوام العلاقات القديمة ، وتفجرت الحرب العالمية الاولى التي كان من نتائجها خروج روسيا مع مستعمراتها من النظام الراسمالي ( وهي تشكل بمساحتها سدس اليابسة على الكرة الارضية ) مع هزيمة المستعمرين امام ثورتها . وبدات بهذا الامر مرحلة انتقال الجملة الانسانية الى الطور الاعلى : طور الاشتراكية السائدة عالميا ، طور التعاون والتكامل بين مختلف الامم والمجتمعات ، التعاون والتكامل المنسجمين بشكل افضل مع التقدم العاصف للتكنولوجيا والعلم ، ومع تقدم وعي الامم والشعوب وقدراتها المادية . ولكن المستعمرين في اعقاب الحرب العالمية الاولى استمروا في اقتسام ما بقي لهم من العالم ( بعد انسلاخ روسيا ومستعمراتها عنهم ) وفي ممارسة قهر الشعوب مع التناحر فيما بينهم ، فكان ان تفاقمت ازمة نظامهم في الجملة الانسانية بدلا من ان تشفى ولو الى حين بتلك الحرب العالمية

الاولى • وهذا يدل دلالة واضحة على ان نظامهم كامبرياليات احتكارية راسمالية تقتسم جزءا كبيرا من العالم فيما بينها وتتناحر الى حد الاقتتال والتفاني ،هذا النظام المتخلف لايتجاوب ابدا مع واقع الجملة الانسانية ،وبالتالي لايصلح للبقاء فيها • وبنتيجة تفاقم الازمة العامة للجملة الانسانية المبتلاة بذلك النظام الاستعماري اندلعت الحرب العالمية الثانية التي ادت الى ازدياد الخارجين على النظام الراسمالي العالمي وقيام معسكر متسع الارجاء قوى من الدول التي الغت ملكية وسائل الانتاج الحاسمة واممتها وهي اشتراكيات مرحلة الانتقال،والى جانب هذا الامر قام عالم يهدر بالثورات ضد كل انواع القهر والعبودية ،عالم المستعمرات واشباه المستعمرات القديمة • في هذه الظروف « ادلت » الولايات المتحدة على العالم الراسمالي لتنقذه من محنته • وكان الحل الذى رآه الامبرياليون الاميركان هو ايضا مسخ التعاون والتكامل المطلوب بالحاح في الجملة الانسانية ليقوم فيها بين الامم والمجتمعات في عصر نووى قد تؤدى فيه الانانية المجرمة للامبريالية الى دمار العالم دمارا شاملا ، وفي عصر بلغ فيه التقدم المادى هذا المستوى الذى نراه ونلمسه والذى يتطالب اكثر من اى وقت مضى تعاون وتآزر الشعوب بعد تحريرها من كل عدوان وقهر ،نقول ان الحل الذى رآه الاميركان الامبرياليون هو ايضا مسخ التعاون الحر والتكامل العادل بين الامم والمجتمعات « بالتعاون والتكامل بين الامبرياليين تحت زعامتهم ،وذلك باقامة احتكار ( شركة ) امبريالي عالمي بدلا من الامبراطوريات الاستعمارية القديمة المتناحرة والمتحاربة طيلة تاريخها المخزى • وفي هذا الاحتكار

ينظم العالم الراسمالي باجمعه ( متقدمه ومتخلفه ) بنظام يتناقض فيه استقلال الدول تجاه الامبرياليين ( سيما منهم الاميركان اقواهم ) بمقدار امتداد تخلفها وضعفها • وهذا ما يشبه شبها تاما نظام الشركة الاحتكارية التي تهبط فيها قوة المساهم في الدفاع عن حقه في الانتفاع من الشركة بمقدار هبوط حصته في الاسهم بينما يحقق المساهمون الكبار ( الاقوياء ) ارباحا تفوق بكثير ما تستحقه اسهمهم بالاضافة الى استفادتهم من القوة الكبيرة الحاصلة من اجتماع اسهم المساهمين كلها بقبضتهم • لكن الحل الاميركي لاخراج النظام الراسمالي الاحتكاري العالمي من ازمته لم يؤد الا الى ادخال هذا النظام في آخر ازمة له تختم دوره باجمعه في الجملة الانسانية وتنهيه ليقوم الدور الاعلى الذي هو الدور الاشتراكي العالمي : ليس هناك بعد الامبريالية الراسمالية الواحدة في العالم الا زوال هذه الامبريالية •

ولقد تشابه دور العبودية والراسمالية ( لاسيما في مراحل الاحتكار منهما ) في غل يد الانسان وسحق حريته وتعليل مبدأ التكافؤ بين الافراد وبين المجتمعات والشعوب • فالعبودية على بساطة وسائلها في الانتاج وعدم صعوبة الحصول على هذه الوسائل مع عدم استحالة تنمية المهارات اللازمة لاستعمالها ) جعلت من الانسان عبدا منتجا ، جعلته « مكنة انتاج » وسلعة ،كما وضعت كل ما يلزم من العلاقات غير المتكافئة بين الناس مع كل القواعد والحواجز لضمان سلطة طبقة محددة هي طبقة السادة قادة المجتمع العبودي • الامر الذي جعل من الناس الآخرين من خارج هذه الطبقة لا يفضلون العبيد كثيرا في تلقي

القهر والمهانات . اما المجتمعات التابعة في امبراطوريات الرق فان الفقر والتخلف فيها مع ذل التبعية كانا يضافان الى قيود العبودية . اما في الطور الراسمالي ( لاسيما المراحل الراقية منه ) فان ملكية الرساميل اللازمة للانتاج اصبحت بعيدة كل البعد عن متناول كل الافراد في المجتمع المتقدم الى جانب بعد تكنولوجيا الانتاج ورساميله من المجتمعات المتخلفة في الجملة الانسانية . اى ان الرساميل تكون حكرا لطبقة معينة في المجتمع المتقدم ، وبالتالي يقوم نظام في هذا المجتمع لايجد فيه الناس خارج تلك الطبقة سوى التجند في النظام المذكور بحسب حظوظ ومؤهلات كل فرد منهم : من الصفيلة المنتجين الى المستخدمين والى الذين يؤدون مختلف خدمات النظام في البحوث والادارة والقمع الخ .. بالاضافة الى جيش العاطلين الجائعين . اما البلاد المتخلفة فانسانها مقهور وثرواتها منهوبة من قبل الطبقات المالكة في تلك البلاد المتقدمة .

ان تحرير الانسان والمجتمعات لابد اذن من ان يبدأ من منع احتكار الانتاج من قبل فئة قليلة ،هذا الاحتكار الذى يحصل باسترقاق المنتج كما كان يحصل في الطور العبودى او بملكية الوسائل الحاسمة للانتاج ،كما هو حاصل الآن مثلا في النظام الاحتكارى العالمي . فالثورة الاسلامية الكبرى عندما هدمت طور الرق وازالت قواعده وحواجزه ، فتحت امام الحرفة الممارسة من قبل الاحرار آفاقا غير محدودة لازدهارها ورقيها . ففي هذا الطور لم يكن احتكار وسائل الانتاج ممكنا لبساطتها ،كما ان الحصول على المهارات اللازمة لاتقان الحرفة ( وان اتبع قواعد واعراف صلبة ) لم يكن مستحيلا . اما السوق

فكان مفتوحا للجميع يمارسون فيه عملية التبادل . لذلك كان التكافؤ بين الناس من الناحية المادية مضمونا على العموم : بامكان اى انسان ماهر مجد ان يصعد السلم الى اعلاه . اما من الناحية الروحية فان العقيدة الاسلامية قد كفلت تكافؤ الناس من كل الامم والنحل بشكل مطلق . ولا نحاول هنا انكار حدوث الازمات في الطور الاسلامي . فهي قد تكررت مرارا عديدة وحلت المجاعات ونزلت الكوارث بالناس ، الا ان جوهر هذا الطور والاساس الذى قام عليه هو كما قلنا .

والخلاصة ، ان تحرير انسان هذا العصر هو بمنع ملكية الوسائل الحاسمة للانتاج التي تضع بيد فرد او افراد محدودين مصائر وحقوق الناس والامم . وهذا لايعني تاميم تلك الوسائل ووضعها بيد بيروقراطية جامدة او منحرفة تضيق الخناق على الناس وتبتليهم " باسم الحرية " بما هو اعظم مما ابتلوا به ايام الراسماليين المستعمرين . ان المطلوب ايضا هو تحرير روح الانسان بدعوة تخلصه من المادية المبتذلة الحالية وتخلقه في عالم اخوة حقيقية ينعدم فيها تعدى الحدود بين الافراد والمجتمعات . وسيكون هذا في الطور الاشتراكي المقبل الذى لابد من ان يبدأ بثورة انسانية كبرى تهدم نهائيا نظام الاحتكار الراسمالي ( تهدم على الاقل اركانه ومرتكزاته الاساسية ) وتزيل قواعده وحواجزه التي اقامها بين الشعوب والامم . وهذا الدور هو الدور الحاسم لامتنا العربية في المساعدة على انهاء مرحلة انتقال جملة المجتمعات الانسانية الى طور الاشتراكية . ذلك لان ارض وابنا لها كل المؤهلات في انسانها وثرواتها وموقعها للقيام بهذا الدور .

الافكار الاوربية الضيقة - ان كتابة التاريخ العام ،تاريخ الانسانية، وكانه تاريخ الاقوام الاوربية فقط ،كما جرت عليه العادة حتى الآن، مبعثه التعصب و "الافكار الاوربية الضيقة "المشابهة "للافكار الارضية الضيقة "التي كانت تسود قبل كوبرنيك وتقول: ان الارض في مركز الكون ،وان كل شيئ في الكون يدور حولها . فالتاريخ لم يبتدئ باليونان ليصل فقط الى الاوربيين الراسماليين مارا بالرومان واقلاعيي القرون الوسطى الجرمن . والاحداث التاريخية لم تتخذ من اوربا مركزا تنطلق منه الى كل جهات العالم في كل زمان . وليست الاطوار التاريخية ( من المشاعة حتى العليا منها ) اوجه نمو الانسان الاوربي . فهذه الاطوار هي ،كما سبق وقلنا ،اوجه تكون وتطور جملة المجتمعات الانسانية قاطبة ،انها اوجه تكون الانسانية في كل متماسك لاينفك عن النمو والتقدم والتكامل ،تكون الانسان في تلك الجملة العالمية . فهي لاتخص مجتمعا او عددا محدودا من المجتمعات في قارة من القارات مهما كان الدور البارز لذلك المجتمع او تلك المجتمعات في تحريك التقدم : ان النظام الاشتراكي مثلا يمثل وجها متقدما لتكامل ونمو جملة المجتمعات الانسانية فهو لايقوم بكل ابعاده اذن الا كنظام سائد عالميا ،فلا تصح لذلك النظرية القائلة بان دولة بمفردها ( كالاتحاد السوفياتي او غيره ) تستطيع تحقيق تلك المرحلة ( بله تجاوزها الى المرحلة الاعلى ،مرحلة الشيوعية العليا حسب التعبير الماركسي ) في حدود مجتمعاتها في ظل نظام راسمالي سائد عالميا ،وان استطاعت المساهمة بنصيب كبير في دفع العالم نحوها. ولعل تلك "النظرة الاوربية الضيقة "هي التي كانت في اساس الخطأ

الفادح عندما اعتبرت الماركسية اقطاعيات اوربا القرون الوسطى طورا عالميا متقدما بالنسبة الى طور العبودية ،وذلك باهمال طور الحرفة الحرة الذى قام وازدهر في المناطق التاريخية الثلاث المار ذكرها قبلا : منطقة البحر الابيض المتوسط ،والقارة الهندية ،والصين ، والذى كانت الامبراطوريات والممالك الاسلامية في اليمة رواده . ومما مهد الى هذا الخطأ ( وغيره من الاخطاء ) عدم اعطاء الاهمية الكافية لارتباط المجتمعات فيما بينها في جملة واحدة ،في " مجتمع المجتمعات" ، ومحاولة رؤية " الشريط الكامل " للتطور الاجتماعي في مجتمع واحد فقط : انجلترا مثلا في عهد ماركس والاتحاد السوفياتي في عهد الشيوعيين المتاخرين . مع العلم بان رواد الماركسية كانوا في اليمة الاوربيين الذين انصفوا الشرق في دراساتهم وفي اليمة من انصف الحقيقة اينما بحثوا .

ان العرقية على اختلافها سيما منها الامبريالية الصهيونية ، مهدت لهجومها المادى على الشعوب بهجوم فكرى شنته منذ اواخر القرن الماضي ( تاريخ بلوغ الراسمالية مرحلتها العليا واقتسام الكرة الارضية من قبل الامبرياليين ) . والغاية من هذا الهجوم هو تبرير الاستعمار بمحاولة ابراز تفوق الجنس الاوربي وانكار كل ميزة في الاجناس الاخرى : وفي النتيجة انكار انسانية هذه الاجناس ليكون اذلالها ( وابادتها في كثير من الاحيان ) امرا غير مستهجن . وقد تمكنت الصهيونية ،الى حد بعيد ،من اثارة الغبار والتمويه حول كثير من حقائق التاريخ العام المتعلقة بالعرب والاسلام بصورة عامة وذلك بما لها من نفوذ وهيمنة في الدوائر الثقافية وفي دور النشر

الاوربية ،ومن اجل تهيئة الافكار لقبول غزوها للارض العربية بدءا من فلسطين . وكان من جملة الاهداف الكبيرة التي هاجمتها وجود فكر عربي متقدم قبل الدعوة الاسلامية . وكان هذا تمهيدا لفصل هذه الدعوة عن اطارها الطبيعي ،لاقتلاع جذورها من الارض التي نبتت فيها ، لجعلها ( باختصار ) حادثا منعزلا ليس له اى اثر في سير التاريخ العام ،وبالتالي انكار الامة العربية ،وايهام العالم بان الارض العربية التي تدعي الصهيونية باحتلالها فارغة لايسكنها الا ... " هنود " عرب . وبلغ الهجوم الصهيوني الفكرى اوجه على الامة العربية في العشرينات من هذا القرن ،غير بعيد عن التاريخ الذى صدر فيه وعد بلفور . فقام الصهاينة من المتخصصين بالدراسات العربية ( وفي طليعتهم الصهيوني دافيد صموئيل مرغليوث ) بحملة انكار للشعر الجاهلي . في تلك الفترة حيث كانت سلطات الاستعمار البريطاني تقوم بتنفيذ وعد بلفور بانتزاع الاراضي من العرب وتسليمها الى اليهود في فلسطين ، وحيث كانت امواج المهاجرين الصهاينة تتدفق على هذا القطر العربي ،طرح في الصحف وفي الاوساط الفكرية العربية موضوع انكار الشعر الجاهلي . وكان من نتيجة هذا الطرح ان قامت ضجة اجتاحت كل الاقطار العربية ،فكتبت المقالات والفت الكتب في تأييد او رفض تلك الفكرة ،وكادت مسألة فلسطين ان تضيع وسط تلك الضجة . بل انها كانت طعنة صهيونية سامة في الحرب النفسية التي تشن علينا .

٢ - المجتمع : يتكون المجتمع وينمو ككل كائن مادى حي ثم يتفسخ ويضمحل . فلا يوجد مجتمع دائم ازلي ،بل ان المجتمعات ترتبط

بحقبة تاريخية محددة فتلد بقيامها وتندثر بانتهائها • وتتعين هذه الحقبة التاريخية بعوامل وعلاقات عديدة : اقتصادية وسياسية واجتماعية • وكما ان الكائن المادى يتعرض في بعض الاحيان لاحداث مادية تمنعه من ان يتم حياة طبيعية ،فان المجتمعات ايضا قد تتعرض لما يسبب لها مختلف الامراض فتنحط او تندثر قبل الاوان • الا انه من المؤكد ان المجتمع ( اى مجتمع ) لا يكون ازليا ولا بد له ان يندثر في حقبة من الاحقاب التاريخية : ان الانسان النياندرتالي مثلا قد اختفى ولم يعد له وجود ،كما ان المشاعات البدائية ومجتمعات العبودية ، ومجتمعات الحرفة الحرة السائدة ،قد بادت كلها عمليا منذ وقت طويل • وكانت المشاعة الواحدة لاتعيش الا فترة محددة من ذلك العهد البدائي • فكانت مثلا تلد وتنمو ،ثم تصل في النتيجة الى مرحلة الانقسام الى مشاعتين او اكثر • او انها كانت في ظروف اخرى تذوب في مشاعات اخرى ،او انها تباد من قبل مشاعة اقوى الخ •• وفي عهد العبودية قامت مجتمعات وبادت مجتمعات • لقد كانت هنالك مثلا العرب العاربة او البائدة في الجزيرة العربية : طسم وجديس مثلا • وقامت العرب الباقية : المستعربة والقحطانية • كما ان الكثير من المجتمعات العربية ( قبائل واحياء ) تركت الجزيرة وتفرقت في امصار الامبراطورية الاسلامية التي قامت بقيام طور الحرفة الحرة • وفي العهد الراسمالي انقرضت اجناس كثيرة من الحمر في اميركا ،والسود في افريقيا واستراليا والسمر في الهند الخ •• ونشأت مجتمعات كثيرة لم تكن موجودة قبلا : مجتمعات كندا والولايات المتحدة الاميركية والمجتمعات اللاتينية في الاميركتين ومجتمعات البيض في

في جنوب افريقيا واستراليا ونيوزيلندة .. والملاحظ ان المجتمعات تزداد تنوعا وتزداد تعقيدا ويطول بقاؤها ( يمتد عمرها ) بتقدم الانسان في الجملة الانسانية .

تشكل الاسر والافراد محتوى المجتمع الذى يقوم عندئذ على نظام ( على شكل ) يتالف من مجموعة العلاقات الاساسية الدائمة نسبيا ،ومن علاقات طارئة وغير دائمة . فذلك المحتوى يتغير ( يجرى ) باستمرار: تنحل الاسر بموت الآباء على العموم ،وهي تتولد بلا انقطاع بالتزاوج ، ثم ان هنالك الموت والولادة الازليين في المجتمع . لكن المجتمع يبقى ما بقي نظامه ( ما بقيت علاقاته الاساسية ) حيث تتوفر الشروط اللازمة لديمومة التجدد المستمر للمحتوى الآنف الذكر . وان بذور الجديد في المحتوى الاجتماعي تاتي من القديم : الآباء يلدون الابناء ، الاسر الجديدة تتولد من تلك التي سبقتها بالوجود . وتستمر حركة تجدد المجتمع في الجو الملائم للحياة ،على ارض مثلا تمكن من العمل والانتاج الضروريين لحياة الانسان . فبذرة الانسان اذ تأتي من ابويه تنمو وتكتمل وتتفرع بما توفره ارض المجتمع ويوفره نظامه من وسائل ومواد الحياة : المادية والروحية . اى ان هنالك حيث يقوم مجتمع يوجد قبل كل شيء المجال المادى لديمومة الحياة ،وهو مجال ينتمي الى العالم العضوى الكائن بدوره في وسط ملائم على الكرة الارضية . فالحياة الانسانية تنتهي الى هذا المجال ،وهي في ذات الوقت تنبت فيه ،في تربته وفي جوه . او ان محتوى المجتمع ياخذ منابعه عندما يجرى من ذلك المجال ،ويصب فيه في الوقت ذاته . وفي هذه الحركة ،في هذا التغير ،تتكون سلسلة تتالف من مجموعة سلالات

المجتمع ( يتكون تسلسل المجتمع ) تتصف بخواص معينة تحدد هويتها ،او تميز هذا المجتمع من غيره من المجتمعات. ومن اهم هذه الخواص مجموعة القرابات والارتباطات المادية بين مختلف الافراد والفئات ،فهي تعين الانتماء الى المجتمع . ثم ان مجموعة الخواص تؤهل المجتمع للدور التاريخي الذى يقوم به بين جملة المجتمعات الانسانية ، تؤهله لوظيفته في جملة المجتمعات.

يقوم المجتمع على جملة من العلاقات المادية والروحية تؤلف على العموم وحدة كاملة نواتها علاقات الانتاج الكافية لديمومته المادية . والوحدة الآنفة الذكر يمكن ان تكون بسيطة او معقدة ، ويمكن ان يكون لها اجزاء واضاف: هنالك مثلا المجتمعات البسيطة الصغيرة مثل مجتمع القرية ،والمجتمعات المعقدة كمجتمع المدينة ، والمجتمعات المركبة المؤلفة من عدد من المجتمعات البسيطة والمعقدة التي تؤلف جميعها كلا متكاملا كمجتمع قطر من الاقطار الخ ..

قلنا ان المجتمع كائن مادى معقد ،يتابع بظروفه المادية الخاصة فيكتسب صفات تميزه من غيره من المجتمعات. وهو لذلك ،مثل كل الكائنات المادية ،يدخل في تفاعلات وعلاقات مع المجتمعات الاخرى لتلبية حاجاته المختلفة ،او لصيانة كيانه . وتتولد نتيجة لمختلف التفاعلات الداخلية والخارجية للمجتمع مجتمعات اخرى بسيطة ومعقدة ومركبة : ولدت المجتمعات الاوربية الراسمالية مثلا بتسابقها الى الى المستعمرات مجتمعات اميركا وجنوبي افريقيا واستراليا وغيرها ، وامتدت المجتمعات السوفياتية الى سيبريا فاقامت هنالك مدنا وقرى جديدة . ومن جهة اخرى تنشأ عن التفاعلات والعلاقات التاريخية للمجتمعات

كيانات انسانية موقتة وعابرة كالدول ،واقوام دائمة نسبيا كالامم والاجناس .

٣ - الامـــة : ان الامم ليست مجرد بنيات وظواهر خاصة بالطور الراسمالي . انها نتيجة عمليات اجتماعية تاريخية طويلة الامد . ولقد تفاعلت المجتمعات طويلا وتولد وباد منها الكثير ، وقامت دول ودالت ممالك وامبراطوريات ، ومرت كل الاطوار التاريخية المعهودة ، لتبرز في النتيجة كل امة من الامم القائمة حاليا . واذا كنـــا لاحظنا في العهد الراسمالي صراع الامم واتضاح حدودها ،فان هذا لايعني ابدا ان هذه قد تولدت بنتيجة قيام العهد المذكور فقط ،وانمـــا يعني ان العملية التاريخية الطويلة في نمو وتطور كل امة قـــد بلغت مرحلة متقدمة في طور الراسمالية . وانه لاشك ان التقدم في تكامل جملة المجتمعات الانسانية بعد الطور الراسمالي سيبرز المزيد من خصائص الامم ومميزاتها المتطورة والمتنامية . ذلك لان العناصر الاساسية ( الاعضاء الرئيسية ) لجملة المجتمعات الانسانية هي الامم التي تتكامل وتنمو فتتكامل معها هذه الجملة وتنمو.

نقول ان المجتمعات على اختلاف حجومها وسوياتها تتفاعل فتبرز باستمرار الاشكال الجديدة منها : المتقدمة المتنامية القوية ،او المتقهقرة السائرة نحو الفناء ،او الراكدة الفافية عما يدور حولها . وقد قامت هجرات كبيرة فتحركت مجتمعات برمتها في كل اصقاع العالم فالتقى بعضها بالبعض الآخر وتفاعلت فيما بينها . ومرت اطوار تاريخية وقامت حضارات عالمية واضمحلت. ومن الواضح ان الحياة هي على الدوام دافع كل حركة اجتماعية : انها تتجلى بالحركة ، بتفاعل المجتمعات

وتقدمها ،بالمدنيات ،وتنتهي بالركود والاضمحلال • وقد برزت نتيجة لكل تلك السلاسل من التفاعلات والحركات الاجتماعية في اقطار مناطق المدنيات العالمية التي كنا ذكرناها فيما سبق : مناطق البحر الابيض المتوسط والهند والصين ،روافد تاريخية انسانية متنوعة لكل منها خصائصه المميزة • ثم ان كل مجموعة متقاربة ومتكاملة من هذه الروافد تفاعلت فيما بينها ( عند تقدم جملة المجتمعات الانسانية في نموها وتكاملها ) وكونت امة من الامم المعروفة ،وكان ذلك بسيرها على سبل تاريخية تلتقي في مصير واحد :

- ان روافد الامة الواحدة التقت في عدد من الحضارات من خلال ادوارها التاريخية التي يكمل بعضها البعض الآخر ،فساهمت بهذا في تكوين مجتمع مركب وحدها ( في جملة المجتمعات الانسانية ) في هوية جامعة مميزة هي هوية الامة •

- كان التقاء روافد كل امة على ارض تحددت بنتيجة التفاعلات التاريخية التي حصلت عند تقدم جملة المجتمعات الانسانية في نموها •

- ان العملية التاريخية الطويلة لتكامل الامة ولدت وطورت في هذه الاخيرة الوسيلة الاساسية لاتصال وارتباط الافراد والجماعات والمجتمعات المختلفة فيها ،ولدت اللغة •

- بنتيجة الاشتراك الطويل في احداث اجتماعية واحدة والقيام بادوار متكاملة عند الاسهام في تكوين جملة المجتمعات الانسانية ، اكتسبت الروافد الآنفة الذكر تاريخا موحدا هو تاريخ تكون الامة كجزء متميز ( كعضو قائم بوظيفة محددة ) في جملة المجتمعات•

- ان تكامل الروافد بالادوار التاريخية التي قامت بها ( اثناء

نمو وتطور جملة المجتمعات الانسانية ) وبالتالي اشتراكها بتكوين الاحداث وتفاعلها اثناء ذلك ( قد يكون رافدين او اكثر في بعض الاحداث التاريخية سلبيا ،بمعنى تناقض الرافدين او الروافد وتضادها بهذا الاشتراك الى درجة تصل الى الاقتتال والتفاني في طور تاريخي ،ومثال ذلك اقتتال القبائل والاقاليم العربية وتمزقها في ايام الجاهلية ،كل جاهلية ،ثم عودتها في ايام النهوض للتكامل ايجابيا ضمن اطار الامة الواحدة ) نقول ان الاشتراك في تكوين الاحداث المتداخلة المعقدة مع مختلف الممارسات وانواع النشاط لاقامة وادامة الحياة يولد الاشتراك في تكوين نظرة شاملة ( مركبة ومعقدة ) للواقع المعيش . ان هذه النظرة الشاملة تتطور مع تطور الاحداث التي تمر بالروافد المذكورة فتتسع في بعض الظروف التاريخية وتزدهر ،وتضيق وتنحل في ظروف اخرى ، الا انها تتواصل بتوالي الايام وفي النتيجة تصبح هذه النظرة الشاملة ( المستمرة ما تتالت ايام نشوء الامة ) اساسا في تكوين الحياة الفكرية للامة ،كما تصبح اطارا للدور العائد اليها في اقامة المدنيات العالمية المتتالية .

- ان كل تلك القرابات المادية والروحية الناشئة عن الامور الآنفة الذكر ( سيما منها اللغة الواحدة والتاريخ المشترك والحياة الفكرية الموحدة والاهداف والتطلعات الواحدة ) تشكل اساسا لتوحيد نفسية الانسان في تلك الروافد في نفسية واحدة تقوم عليها الارادة الموحدة للامة .

- ان كل الامور السابقة :التاريخ المشترك للروافد ،وتكون الوطن ضمن حدود تاريخية مع اللغة المشتركة والنفسية والارادة الموحدتين ،

جملت من الروافد المذكورة عناصر كيان موحد له دور محدد في بناء وتقدم جملة المجتمعات الانسانية ،كما ان كل رافد ( بكل مجتمعاته وفئاته الاجتماعية ) يرتبط في نهاية الامر مصيريا بذلك الكيان الذى هو الامة نتيجة لعملية تكون طويلة جعلته جزءا عضويا منه .

والخلاصة : ان نمو الامة وتكاملها عملية لها وجهان ،فهي في الوقت الذى تشكل فيه عملية تكونها فانها ايضا تؤلف دورها الذى تضالع به في بناء جملة المجتمعات الانسانية . وهنا نلاحظ الاهمية القصوى لدور الامم ( والمجتمعات على العموم ) في قيام الجملة الانسانية فهو يعادل وجودها .

ادوار تكون الامم - قلنا ان الامة ليست تجمعا موقتا لعدد من المجتمعات يقوم بسبب قيام نظام او دور معين ،انها كما نرى نتيجة التحام عضوى لروافدها الاجتماعية ،والتحام يتم بنتيجة عملية تاريخية طويلة الامد تبدأ مع تكون جملة المجتمعات الانسانية وتتم بتماسها . ذلك لاننا قلنا ان الامم هي الاعضاء الحيوية لهذه الجملة الانسانية بعناصرها المكونة . فالادوار التاريخية ،اذ هي ادوار تكون جملة المجتمعات،هي ايضا ادوار تكون الامم :

اولا : المساعات البدائية هي الاصول ( الينابيع ) التي بدأ بها تكون الامم .

ثانيا : الدور الصبودى ،مرحلة تكون ثلاث جمل انسانية في مناطق المدنية الثلاث : البحر الابيض المتوسط والهند والصين ،هو ايضا دور التفاعلات والهجرات الكبرى للاقوام والمجتمعات لتقوم في النتيجة العناصر الاولية والاساسية لتكون الامم ،لتبرز روافد الامم في امصار محددة .

ثالثا : طور الحرفة الحرة ،مرحلة انهيار الحواجز بين الجمل الانسانية الثلاث،وقد استمرت فيه التفاعلات الاجتماعية الكبرى،الا ان هذه التفاعلات ( بعد بروز روافد الامم في الطور السابق وتوالدها في امصارها ) كانت على العموم بين هذه الروافد في الامار دول وامبراطوريات ضمت الواحدة منها في بعض الاحيان اكثر من امة واحدة وفي احيان اخرى جزءا من امة .

رابعا : الطور الراسمالي ،مرحلة تبلور الملامح الاساسية لجملة المجتمعات الانسانية العالمية ، وقد تم فيه ايضا الشكل العام لما ستكون عليه الامم عند تمام انضجها في الطور التالي ، وتعينت حدود اربع الوان لكل امة .

خامسا : الطور الاشتراكي ،مرحلة تمام تشكل جملة المجتمعات الانسانية بكل تفاصيلها وخلاياها ،وفيه ايضا تتحرر كل الامم تحـــررا تاما : تتحرر كل امة من التخلف بالنسبة الى الآخرين ، من الاضطهاد من قبل الآخرين ، كما تتحرر ايضا من كل دافع يدفعها للقيام بالعدوان او الوصاية على الآخرين . فيتم لذلك بروز خواص كل امة ويتاكد شكلها ومحتواها النهائيين كعضو تام التكون ومتكامل في ذات الوقت مع الاعضاء الاخرى في جسم الجملة الانسانية العالمية .

نجد في النهاية ان العوامل الاقتصادية ،المتغيرة نسبيا بسرعة ،تشكل بتحولاتها الاساس المادي للتفاعلات الاجتماعية التاريخية المؤدية الى قيام الامم ، في ذات الوقت الذي هي فيه بتسلسلها وتطورها الاساس الذي تقوم عليه الاطوار المختلفة لجملة المجتمعات الانسانية : من المشاعة الى الاشتراكية . الا ان النظر الى الحالة الاقتصادية

في زمن محدود لايكفي للدلالة على قيام او عدم قيام امة من الامم : ان الامبراطوريات الراسمالية مثلا تشكل على العموم اقتصادا متكاملا ، الا ان كل امبراطورية منها لا تشكل امة واحدة على الرغم من وحدة اقتصادها هذه ، كما انه في عهد الاستعمار الراسمالي قد نجد الامة الواحدة مجزأة في عدد من الامبراطوريات والانظمة الاقتصادية المختلفة . كما ان وحدة اللغة لا تكفي للدلالة على وحدة الامة ،فقد نجد اكثر من امة بلغة واحدة كالامم الانجلوسكسونية مثلا والامم اللاتينية في اميركا الجنوبية . ان الامة اذن هي بنت التاريخ ،وهي تتصف لذلك بجملة متكاملة من الخواص الناشئة عبر طريق تاريخي طويل ،ولها مكان محدد ودور معين في جملة المجتمعات الانسانية العالمية . ونرى ان عملية تكامل الامة لا تتم الا بتمام نضج جملة المجتمعات الانسانية ،اى في العهد الاشتراكي وفي مرحلة متقدمة من هذا الطور العالمي عندما :

- تتحرر الامم من كل خوف .
- وتتكافأ فيما بين بعضها البعض بالتقدم وبالسوية المادية .
- ويتحدد لكل واحدة منها دور في جسم جملة المجتمعات

الانسانية تقوم به هي وحدها بشكل مستقل دون اى تدخل او وصاية او اعتراض من قوة اجنبية ،وان كان هذا الدور يقع في الاطار العام الذى يضم كل الادوار الاخرى لبقية الامم ويتكامل مع هذه الادوار لبناء الحركة التاريخية العامة للجنس البشرى ، وان كان جزءا من حياة جملة عالمية واحدة تضم كل الامم . لقد قلنا ان كل امة هي عضو في جسم جملة المجتمعات الانسانية هذه ،والعضو في كل جسم

له دور مستقل فيه ( له حياته الخاصة به ) وان كان هذا الدور يتمم ادوار الاعضاء الاخرى .

ان علينا ان لانفهم من تحديد دور خاص ( وظيفة معينة ) لكل امة في جملة المجتمعات في الطور الاشتراكي العالمي ان الحرية ستتعطل في بعض الظروف بحدود حريات الآخرين ،ففي هذا الطورسيما عند تمامه ستكون الامكانات الانسانية المادية والروحية قد بلغت شأوا بعيدا تتسع معه الحدود التي يمكن ان تنشط فيها كل امة ،وسيصبح من العبث تصور الامم وهي تتزاحم وتتصادم في سبل ضيقة اثناء مسيرتها كما كانت تفعل في العهود الطبقية العجاف . كما انه سوف لن تكون الامم كالنحل كل واحدة منها في خلية محددة ، ولن تعمل بعضها مع البعض الآخر وتتفاعل بشكل ميكانيكي محدود عقيم ،ولا بشكل عضوى ( بيولوجي ) ،وانما بالشكل الاجتماعي الاممي الكامل المبرأ من كل تقصير او افتئات ،بالشكل الذى يفسح في آن واحد لاوسع التفاعلات بين الامم ،ولاوسع مجالات الحركة والحياة مع بروز وتجلي اكمل الخواص المميزة لكل امة . بهذا الشكل تلتقي الاممية ( التعاون والتفاعل غير التناحرى بين الامم ) مع الهوية المميزة لكل امة ( الهوية المتضمنة وعي الدور الخاص للامة في حياة الجملة الانسانية ،الدور النابع من الصفات الحاصلة عبر العملية التاريخية الطويلة لنشوء وتكامل الامة ،النابع من اصالتها ) . وهذا يتعارض تماما مع ماهو عليه الحال في الطور الراسمالي . ففي هذا الطور يتم كما رأينا تكوين الملامح الرئيسية للامم ، ويبرز وعي كل امة لهويتها من خلال تفاعلها التناحرى ( صراعها من اجل التكون والبقاء )

مع الامم الاخرى. فهي اما ان تكون دولة راسمالية متقدمة تزاحم مثيلاتها وتستعبد المتخلفين ، وذلك لاتمام مسيرتها خلال الطورالمذكور ( لاتمام تكونها في جملة المجتمعات الانسانية ). في هذه الحالة نجد انه بالامكان ان تنشأ افكار وفلسفات قد تتنوع ، الا ان غايتها واحدة على الدوام وهي تبرير صراعها مع الآخرين وتبرير استغلالها للضعفاء . وفي كل الاحوال يكون الوجه البارز للهوية المميزة لمثل هذه الامة : مجموعة المصالح الطبقية الممتدة على حدود كل علاقاتها وتفاعلاتها في الجملة الانسانية ( اى الممتدة الى خارج حدود تكونها في هذه الجملة ، الى خارج حدود وطنها ) . فتبرز عندئذ حدودهـــا القومية التي تنطابق على خط مصالحها الطبقية الامبريالية محدود القومية المضطهدة ( بكسر الهاء ) الممتدة على طول جبهة صراعها مع الامم الاخرى. وان هوية مستغلة كهذه تكون كما هو واضح لكائن في طريق التكون وليس لكائن قد تم تكامله . فمثل هذا الكائن الاخير الكامل ليس بحاجة الى تعريف يقوم على حدود تتجاوز حدود الآخرين الى صميم كياناتهم ،لان مصالحه كلها لايمكن ان تصادم بحدود الآخرين بسبب كماله : لايكون بحاجة لانتقاص الآخرين ،كما لايحاول هؤلاء انتقاصه ،وعندما يحدث التفاعل بينه وبينهم فانه يكون تفاعلا غير تناحرى ولمصلحة الجميع ،لديمومة كمال الجميع ( الكمال الذى لن يكون ابديا بطبيعة الحال وانما مؤذنا بقيام حالة جديدة ،طور جديد ) اما في حالة امة راسمالية متخلفة ،فانها تكون مضطهدة ( بفتح الهاء ،مستعمرة او شبه مستعمرة ) فتكافح من اجل الاستقلال ،من اجل اخذ دور مستقل في تكوين جملة المجتمعات الانسانية . وقد تكون مقسمة بين عدد

من الدول الاستعمارية ( كما هو عليه حال الامة العربية التي اقتسمها المستعمرون القدماء ومزقوها ،ثم ادامت تمزيقها المصالح الاستعمارية والغزوة الصهيونية ) . وفي كل الاحوال يكون الوجه البارز لهويتها مجموعة المصالح الوطنية المغتصبة او المعتدى عليها بشكل من الاشكال من قبل المستعمرين . ويكون نضالها لذلك من اجل تحقيق اهدافها القومية المحددة بحدود تلك المصالح المهيضة . فنرى في الطور الراسمالي في كلتا الحالتين ( حالة امة متقدمة ، وحالة امة متخلفة ) ان القومية تبرز في هذا الطور كتعبير عن هوية تسعى الامة صاحبتها الى تاكيدها في خضم التنافس والصراع حتى الموت بين مختلف الامم والجماعات. فهي لاتبرز قبل هذا الطور ،قبل تبلور الخواص الرئيسية لكل امة من الامم في جملة المجتمعات الانسانية العالمية . اما في الطور الاشتراكي فستبرز كتعبير عن هوية امة تم تكونها عبر طريق تاريخي طويل اجتازته بمساهمتها في بناء جملة المجتمعات الانسانية ووصلت في النهاية الى الاضطلاع بدور متميز في هذه الجملة العالمية ،والاضطلاع بوظيفة عضو تم نضجه في كيان عالمي اكتمل بناؤه .

اننا بغنى عن بحث النظريات العرقية الفاشية القائلة بنقاء بعض العروق ،بغنى عن تحصيل الحاصل . الا انه بالامكان القول : ان في تكون جملة المجتمعات الانسانية ادوار تقوم بها اقوام تتفاعل وليس " مشاتل " لعروق " نقية " . ويتم ذلك التفاعل بطرق وعمليات تتنوع حسب الظروف والاطوار التي تتالت طيلة عشرات من القرون . ولقد ماتت او انقرضت مجتمعات وظهرت مجتمعات في اطار تلك العملية

الكبيرة العامة ،عملية تكون جملة المجتمعات الانسانية على مراحل تاريخية كانت هي تلك الاطوار المعروفة . فالمسيرة مسيرة انسانية وليست مسيرة عرق او جنس متفوق ، ولا مسيرة اعراق واجناس متفرقة لا يجمعها جامع . انها مسيرة تكون تلك الجملة لتقوم في النهاية على عدد من الامم المترابطة فيما بين بعضها بعضا ترابطا عضويا يبرز من جهة مزايا كل منها ،ويوحدها من جهة ثانية في جسم الجملة المذكورة . ثم انه ليس من الضروري ان يستمر وجود امة سبق ان برزت لها ملامح مميزة في الطور الراسمالي . فقد تنقرض الامم قبل اكتمال شكلها في الطور الاشتراكي لاسباب مثل :

- كونها مظلمة بدور يناقض تقدم جملة المجتمعات الانسانية نحو الاكتمال ،كان تكون مثلا مدينة بوجودها لامبريالية راسمالية تحاول عبثا تحريك عجلة التاريخ الى الوراء ،كما هو حال اسرائيل التي نبتت على تربة الاستعمار وفي جو الامبريالية ،

- او عندما تفقد هذه الامة لاسباب تاريخية مادية كل دور ومكان في الجملة المذكورة فتزول ( كما زال الهنود الحمر على يد المستعمرين الاوربيين ) قبل ان تبلغ مرحلة الكمال بقيام الطور الاشتراكي العالمي .

هنالك اذن شرط مؤخر لقيام امة هو ان يستمر دورها في تكامل جملة المجتمعات الى ان يتم هذا التكامل بالاشتراكية العالمية ، وبالتالي ان يستمر تكونها في هذه الجملة حتى يتم بمرورها في الطور الاشتراكي العالمي فيتم عندئذ قيامها . لقد قلنا ان جملة المجتمعات تتم بتمام الامم والعكس بالعكس ،فكل ظاهرة فيها لا تستمر

الى هذه النهاية تخرج من لائحة الامم المكونة لها والمتكونة فيها ، وان كانت تشبه في اطوارها الاولى اطوار تكون الامم . اى اننا في مثل هذه الحالة لن نكون امام امة بالمعنى التاريخي للامة ، وانما نكون امام ظاهرة عابرة في تطور ونمو جملة المجتمعات الانسانية .

٤ - اصول الامة العربية : سننظر في هذا البند وفيما يليه الى تكون الامة العربية كمثال على ما نقوله اعلاه . ومن الطبيعي ان لا تختلف هذه العملية في جوهرها عن العمليات الاخرى التي ادت الى نشوء بقية الامم . وفي الواقع يشكل مجموع هذه العمليات كلا متكاملا يصدر عن جوهر واحد ويؤدي الى نتيجة جامعة شاملة : يصدر عن العملية التاريخية العامة الآيلة الى قيام جملة المجتمعات الانسانية .

لقد نشأت الامة العربية في تلك البوتقة الهائلة التي سبق واطلقنا عليها اسم منطقة البحر الابيض المتوسط . وقد " كان الشرق الادنى يبدو للعين الفاحصة كانه بحر خضم يتلاطم فيه خليط من الآدميين ، يأتلفون ثم يتفرقون ، يستعبدون ثم يستعبدون ، يأكلون ويؤكلون ، يقتلون ويقتلون الى غير نهاية . وكان من وراء الامبراطوريات الكبرى ومن حولها - مصر وبابل واشور والفرس - يضطرب هذا الخليط من الشعوب .." * و " .. اذا عدنا الى الخريطة وتتبعنا المجرى المشترك المكون من نهرى دجلة والفرات من مصبه في الخليج العربي الى ان ينفصل المجريان ( عند بلدة القرنة الحديثة ) ثم تتبعنا نهر الفرات متجهين الى الغرب ، وجدنا في شماله وجنوبه المدن السومرية القديمة

---

* قصة الحضارة ص ٣٠١ .

" المطمورة .. ولم يكن تاريخ ارض الجزيرة القديم ( جزيرة ابن عمرو : من عندنا ) من احدى نواحيه الا صراعا قامت به الشعوب غير السامية التي تسكن بلاد سومر لتحتفظ باستقلالها امام الهجرات السامية والزحف السامي من كش واجاد وغيرهما من مراكز العمران الشمالية . وكانت هذه الاجناس المختلفة الاصول في خلال هذا الصراع تتعاون .. لتقيم صرح حضارة هي اول ما عرف في التاريخ من حضارة واسعة شاملة فذة .. وليس في وسعنا رغم ما قام به العلماء من بحوث ان نعرف الى اية سلالة ينتمي هؤلاء السومريون .. ولعلهم سلكوا الطريق المائي من الخليج العربي - كما تروى الاساطير - او من مصر او غيرها من الاقطار ،ثم اتخذوا سبيلهم نحو الشمال متتبعين على مهل النهرين العظيمين .." *

"..على اننا اذا تحدثنا عن بلاد السومريين نكون جد قريبين من بداية التاريخ قربا يصعب علينا معه ان نحكم حكما دقيقا اى الحضارات التي نمت في بلاد الشرق الادنى والتي يتصل بعضها ببعض اوثق اتصال - نقول اى هذه الحضارات اسبق من اختها او ايها اعقبت الاخرى ( الصحيح ان اقوام المنطقة جميعها تفاعلت فيما بينها لاقامة كل تلك الحضارات التي لاتشكل في الواقع الا حضارة واحدة هي حضارة فجر الطور العبودى . وبالتالي لايقدم او يؤخر في الامر شيئا سبق او تاخر هذه الحضارة او تلك ،ما دامت جميعها اجزاء لعملية انسانية واحدة هي تكون اصول الامة العربية حينذاك : من عندنا ) .. ذلك ان آلهة بابل ونينوى واساطيرهما الدينية ليست في كثير من الاحوال الا آلهة واساطير سومرية طرأ عليها التحوير والتطور ،

---

* المرجع السابق ص ١٣ - ١٥ . ** المرجع السابق ص ٤٢ - ٤٤ .

وان العلاقة بين البابلية والآشورية وبين اللغة السومرية لتشبه لتشبه العلاقة القائمة بين اللغتين الفرنسية والايطالية من جهة واللغة اللاتينية من جهة اخرى ..." *

" .. ولقد لفت شوينفرت انظار العلماء الى تلك الحقيقة الطريفة العظيمة الخطر ، وهي ان الشعير والذرة الرفيعة والقمح وتأنيس الماشية والمعز والضأن ،وان ظهرت كلها في مصر وبلاد ما بين النهرين من اقدم العهود المدونة ،لاتوجد في حالتها البرية الطبيعية في مصر بل في بلاد آسيا الغربية وبخاصة في بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة . وهو يستدل من هذا على ان الحضارة - وهي هنا زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات المستانسة - قد ظهرت في العهود القديمة غير المدونة في بلاد العرب ،ثم انتشرت منها في صورة " مثلث ثقافي " الى مابين النهرين ( سومر وبابل وآشور ) والى مصر ( ومن الطبيعي ان تاتي الاقوام مع حضارتها في تلك العهود ، ان ياتي الرعاة مع مواشيهم والزراع مع بذورهم ليقطنوا الاراضي الخصبة في وادى النيل وفيما بين النهرين . ذلك لانه من الصعب تصور مشاعات بدائية متباعدة بعضها عن بعض بتلك المسافات التي تفصل اليمن عن مصر وعن ارض ما بين النهرين تتبادل الخبرات في استئناس المواشي وانبات الزرع البرى : من عندنا ) ..." *

" .. واكثر من هذا احتمالا ان عناصر معينة من الثقافة المصرية مستمدة من بلاد السومريين والبابليين . فنحن نعلم ان مصر وبلاد النهرين كانتا تتبادلان التجارة ( في عهود متاخرة نسبيا ، اى بعد

---

* ذات المرجع السابق ص ٤٢ - ٤٤

اجتياز مرحلة هامة من التقدم في الطور العبودي حيث امكن قيام علاقات منتظمة بين مختلف اقوام المنطقة : من عندنا ) .. وان نظرة الى الخريطة لتوضح لنا السبب في ان مصر كانت طوال تاريخهـا المعروف تنتمي الى آسيا الغربية اكثر مما تنتمي الى افريقيا ( الاصح انها تنتمي الى منطقة البحر الابيض في الجزء الخاص بتكون الامة العربية من هذه المنطقة اي غربي آسيا وشمالي افريقيا : من عندنا ) . ومن ثم كان من البديهي ان نجد في الثقافة المصرية عناصر كثيرة من ثقافة ما بين النهرين .. وكلما رجعنا الى الوراء في دراسة اللغة المصرية القديمة زاد ما نجده فيها من صلات بينها وبين لغات الشرق الادنى السامية .. ومن بين الآثار المصرية التي ترجع الى عصر ما قبل الاسر والتي عثر عليها في جبل الاراك سكين من الظران** جميل الصنع عليه نقوش بارزة هي بعينهـا نقوش اهل الجزيرة من حيث موضوعها وطرازها ( وهذا برهان ايضا على تبادل الهجرات في تلك العهود التي يصعب فيها تبادل الخبرات عبر تلك المسافات التي تفصل مصر عن ارض ما بين النهرين : من عندنا ). ولعل صناعة النحاس قد نشأت في غربي آسيا ثم انتقلت بعدئذ الى مصر . وتشبه الهندسة المعمارية المصرية الاولى هندسة ارض الجزيرة في استخدام النقوش الغائرة لتزيين الجدران المتخذة من الآجر . وفخار عهد ما قبل الاسر المصرية وتماثيله الصغيرة وموضوعات زينتها تشبه مثيلاتها في ارض الجزيرة في كثير من الاحوال او شديدة الصلة بلا ريب . ومن الآثار الباقية من ذلك العهد تماثيل صغيرة لآلهة لا يخطئ الانسان في انها من اصل اسيوي ( ما بين النهرين :

---

** قطع الصوان المصنوعة في الازمنة القديمة على اشكال حراب ونصال وفؤوس وما شاكل كانوا يستعملونها قبل ان اكتشفوا عمل تلك الادوات من المعادن . والطور الظراني او الظراني هو الطور الحجري : المنجد

من عندنا ) ..."

والخلاصة يمكن القول : ان الاقطار التي قطنتها الاصول الاولى للامة العربية : جزيرة العرب ومصر وارض ما بين النهرين وسورية ،كانت منذ اقدم عصور المشاعة مسرحا للهجرات المتقابلة فيما بينها ، وهذا يعني بوضوح كاف ان تلك الاصول تكونت بعملية تاريخية واحدة : قيام المشاعات البدائية في منطقة الاقطار المذكورة ،ثم توزعها على هذه الاقطار ،وتفاعلها فيما بينها ،واختلاطها ،عددا كبيرا من المرات طيلة العهود التي قام فيها طور المشاعة البدائية . وفي نهاية الامر برز في كل قطر من الاقطار الآنفة الذكر اصل متميز من اصول الامة العربية . ولم يقف التفاعل بين هذه الاصول ليسير كل واحد منها في طريق يبعده عن الآخرين ،بل انه استمر واشتد على الدوام بتقدم الوسائل المادية للاتصال . ثم امتدت التفاعلات الى اقطار ابعد ،فبرزت اصول اخرى للامة العربية في وسط وشمالي افريقيا منذ حقب متقدمة من الطور العبودي ،منذ ان نهب ملوك مصر يفتشون عن الذهب والثروات الاخرى في السودان ،ومنذ ان نهب الفينقيون يقيمون مدنهم ومستعمراتهم في الساحل الشمالي لافريقيا .

التاريخ

لقد قص علينا / قصة العلاقات الكثيفة والمتشعبة لتلك الروافد على مدى اكثر من ستين قرنا ( اى اكثر من اربعين قرنا قبل الميلاد) :قص علينا قصة العلاقات التجارية ،والهجرات المتقابلة ،وتاريخ الدول والممالك والامبراطوريات التي اشتركت تلك الروافد في اقامتها . وفي بعض الاحيان كانت هذه تقع كلها او بعضها تحت حكم امبراطوريات اجنبية كامبراطوريات الفرس واليونان والرومان . لكن فترات التبعية

الاجنبية هذه كانت قصيرة جدا بالنسبة للعهود الطويلة التي كانت فيها السيادة على المنطقة للاقوام السامية . فالتدخل الفارسي مثلا في المنطقة بدأ في اواخر القرن السادس قبل الميلاد في عهد قورش . ثم اعقب امبراطورية الفرس على التوالي امبراطوريتا اليونان والرومان حيث انحسرت هذه الاخيرة عن المنطقة العربية بالثورة الاسلامية الكبرى في اوائل القرن السابع الميلادي. اى ان هذه الامبراطوريات الاجنبية لم تدم في المنطقة العربية اكثر من احد عشر قرنا من اصل اكثر من ستين قرنا من التاريخ المعلوم ( عدا فترات قصيرة ومتقطعة وفي اجزاء متفرقة من الوطن العربي كفترات الحروب الصليبية في سورية ، والاستعمار الاوربي الراسمالي مؤخرا ) عاشت فيها الروافد العربية سيدة في مناطقها : تتفاعل فيما بينها بشتى انواع التفاعل ،وتدور الصلات بين بعضها والبعض الآخر ،وتقيم الامبراطوريات والحضارات ،مكونة بهذا هويتها المتميزة والموحدة . ولعل الاحتلال الاجنبي الدائر في الوطن العربي ،لعل قيام امبراطوريات الفرس واليونان والرومان وغيرها من الدول الاجنبية في ارض الامة العربية ،هو من اقوى الاسباب التي ايقظت وعي الروافد المختلفة للامة العربية لهويتها الموحدة والمميزة . ومن المؤكد ان امتنا تمكنت مع ذلك في ظروف الاحتلال الاجنبي المذكور من المساهمة بفعالية كبيرة في بناء الحضارات الانسانية ( كحضارات الفرس واليونان والرومان ) بعد ان سبقت روافدها ( في مصر وفيما بين النهرين وفينيقية ) في التاسيس لكل الحضارات الانسانية التي قامت فيما بعد .

تفاعل الاصول في الامبراطوريات القديمة : بالاضافة الى الهجرات

المتقابلة منذ اقدم العصور بين مختلف اقطار الروافد الاولى للامة العربية ،بالاضافة الى كل الصلات المادية والفكرية ،نجد ان مصر وسورية والسودان ( اى بلاد النوبة وجنوبها من وادى النيل ) وليبيا كانت في الطور الصبودى تعيش على الدوام تقريبا في ظل امبراطورية واحدة ،او في ظل دول ترتبط بعلاقات وثيقة . كما تتالت امبراطوريات بابل وآشور في ارض مابين النهرين وامتدت في كثير من الاحيان لتشمل سورية ومصر . وقد ذهبت قوافل واساطيل الفينيقيين الى الشمال الافريقي ،كما سبق وذكرنا . ولنلق فيما يلي نظرة عاجلة على الدول والممالك التي ضمت روافد الامة العربية فكانت لها مرارا وتكرارا وعلى مدى قرون طويلة ارض تفاعلات خصبة وحدتها في دور تاريخي تعاونت جميعها على انجازه عندما ساهمت في بناء جملة المجتمعات الانسانية .

اولا : الامبراطوريات المصرية - " .. بدأ سنوسرت الثالث ( فرعون الدولة الوسطى حول القرن العشرين قبل الميلاد : من عندنا ) يخضع فلسطين لحكم مصر ،ورد النوبيين الذين كانوا لايتقاعسون عن الاغارة على حدود مصر الجنوبية .."

- و " .. ان تحتمس الاول ( من الاسرة ١٨ ،حكم في الثلث الاخير من القرن السادس عشر قبل الميلاد : من عندنا ) لم يحرز قوى الدولة الجديدة فحسب ولكنه غزا سورية ايضا بحجة ان مصر يجب ان تسيطر على غرب آسيا لكي تمنع الاعتداء على اراضيها فيما بعد ، واخضع كل البلاد الواقعة بين ساحل البحر وقرقميش في الداخل .." * *

---

* المرجع السابق ص ٧٥ * * المرجع السابق ص ٧٦

- و "٠٠ كانت حتشبسوت ابنة تحتمس الاول تلقب بضمير المذكر : ابن الشمس ، وسيد القطرين ( مصر وسورية : من عندنا )٠٠"

- و "٠٠ خلفها ( خلف حتشبسوت ) تحتمس الثالث ٠٠ الذى سار مظفرا مخترقا غرب آسيا يخضع اهلها ويفرض عليهم الضرائب ويجمع منهم الخراج ٠٠ وكانت هذه الحملة اولى حملات بلغت عدتها خمس عشرة اخضع فيها تحتمس الباسل بلاد البحر الابيض المتوسط الشرقي لحكم مصر ٠ ولم يكن عمله عمل الفاتح فحسب ، بل انه عمل ايضا على تنظيم فتوحه ، فاقام في جميع البلاد المفتوحة حاميات قوية ، وانشأ فيها حكما منتظما قديرا ٠ وكان تحتمس هذا اول رجل في التاريخ ادرك ما للقوة البحرية من شأن عظيم فانشأ اسطولا اخضع لسلطانه بلاد الشرق الادنى ٠٠" *

-"٠٠ بعد ان نحى رمسيس ( من الاسرة ١٩ ، ملك في اوائل القرن الثالث عشر قبل الميلاد : من عندنا ) اخا له مسير حملة الى بلاد النوبة ليفتح ما فيها من مناجم الذهب ٠٠ وكان اهم موارد مصر ، موقعها على الطريق الرئيسي لتجارة البحر الابيض المتوسط ، وكانت معادنها وثروتها قد جعلت لها السيادة على بلاد لوبيا في الغرب وعلى بلاد فنيقية وسورية وفلسطين ٠٠" * *

ان التفاعل بين مجتمعات مصر ومجتمعات غربي آسيا وليبيا والسودان ماكان في تلك العصور القديمة ليقع في اتجاه واحد فقط : الاتجاه المؤدى الى تاسيس الامبراطوريات المصرية ، وانما كان يحدث

---

* قصة الحضارة الآنف الذكر ص ١٨٨ ، ١٩٣٥ * * المرجع السابق ص ٧٥

ايضا في الاتجاهات الاخرى. فقد اتى الهكسوس الى مصر واسسوا فيها دولة دامت من اواخر القرن الثامن عشر حتى اواسط القرن السادس عشر قبل الميلاد. وفتحها اللوبيون في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد. كما ضمها الآشوريون الى امبراطوريتهم في عام ٦٧٤ ق.م. بعد ان حكمها الكوشيون (اهل النوبة) زمنا طويلا من الزمن.

"ان الهكسوس الذين حكموا مصر كانوا من العرب في راى كثير من العلماء، بل في نظر قدماء المصريين كما حكى ذلك الراهب المصرى المؤرخ مانيتو في كتابه المؤلف باليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد.. فهذه الجماعة العربية حكمت سورية وفلسطين ثم غزت مصر في نحو عام ١٦٧٥ ق.م (وفي قيل آخر انها غزت مصر عام ١٧٣٠ ق.م : من عندنا) .. وكانت اسماء ملوك الهكسوس كنعانية وآرامية.. وقد كانت امبراطوريتهم ضخمة مترامية الاطراف ممتدة الجوانب من الفرات الى الشلال الاول في مصر، ولذلك لايبعد ان تكون مصر وسورية اتحدتا تحت ادارتهم وكونتا مملكة واحدة، فكان ذلك اول وحدة للقطرين عرفها التاريخ"

"قال المرحوم الدكتور سليم حسن مؤلف مصر القديمة : وكان الهكسوس مثقفين ذوى حضارة وعرفان، فنهلت مصر من موردهم، واستنارت بمدنيتهم التي انتظمت فنون الحرب، ونواحي الصناعة، واخذت عنهم كثيرا من المخترعات التي لم تعرف قبل في مصر.. وقد ظلت ثقافة الهكسوس تطبع الحياة المصرية بطابعها الخاص الى مدة لايستهان بها في عهد الاسرة الثامنة عشرة التي طردتهم من البلاد. والهكسوس هم الذين ادخلوا الخيل الى القطر المصرى للمرة الاولى وضربوا المصريين على

استعمال المجلات الحربية .. وبلغت صناعة المعادن في عهدهم ذرى جديدة في سورية ومصر . وتقدمت صناعة الحلي والخزف والعاج والنقش تقدما بارزا .. "*

ثانيا : امبراطوريات ما بين النهرين - "كانت بابل من حيث تاريخها وجنس اهلها نتيجة امتزاج الاكديين والسومريين .. وكانت الغلبة في السلالة الجديدة للاصل السامي الاكدي ،فقد انتهت الحرب التي شبت بانتصار اكد وتاسيس مدينة بابل لتكون حاضرة ارض الجزيرة السفلى باجمعها ( ان هذا يشبه العملية التاريخية التي حدثت فيما بعد في ايطاليا عندما نشبت الحروب بين مدينة روما وجيرانها من الاتروريين وغيرهم ،ثم انتهت هذه الحروب بسيادة روما على كل شبه الجزيرة الايطالية وبقيام الشعب اللاتيني هناك : من عندنا ) .. وكان البابليون ساميين في مظهرهم سود الشعر ، سمر البشرة .."* *

- "... وكان على الحدود الشرقية لدولة بابل قبيلة قوية من اهل الجبال هي قبيلة الكاشيين ، تحسد البابليين على ما اوتوا من ثروة ونعيم ، فلم يمض على موت حمورابي ثمان سنين حتى اجتاح رجالها دولته .. ثم شنوا عليها الغارة تلو الغارة واستقر والآخر الامر فيها حاكمين .. واخرج الكاشيون من ارض بابل بعد ان حكموها ما يقرب من ستة قرون ،واضطربت فيها احوال البلاد وتمزقت .."

- " .. قامت دولة آشور في الشمال فبسطت سيادتها على بابل واخضعتها لملوك نينوى .. ولما قامت دولة الميديين وضعف الآشوريون

---

* بلادنا فلسطين . مصطفى مراد ج١٠ ق١٠ ص ٥٠٩ - ٥١٣

** قصة الحضارة الآنف الذكر ص ١٨٨ ، ١٩٣

استعان بنبولصر بالدولة الناشئة على تحرير بابل من حكم الآشوريين واقام فيها اسرة حاكمة مستقلة . وخلفه في حكم الدولة البابلية الثانية ابنه نبوخذ نصر ( وهو باني برج بابل الشهير ،ملك في اواخر القرن السابع واوائل القرن السادس قبل الميلاد : من عندنا ) .. وكان اقوى ملوك الشرق الادنى في زمانه ،واعظم المحاربين والبنائين والحكام السياسيين .. وسرعان ما وقعت فلسطين وسورية في قبضته ، وسيطر التجار البابليون على جميع مسالك التجارة التي كانت تعبر غرب آسيا من الخليج العربي الى البحر الابيض المتوسط ..*

- "... ظهرت حضارة جديدة الى شمالي بابل وعلى بعد ثلاثمائة ميل منها . واضطر اهل البلاد التي نشأت فيها هذه الحضارة ان يحيوا حياة عسكرية شاقة ارغمتهم عليها القبائل الجبلية التي كانت لا تنفك تهددهم من جميع الجهات. وما لبثوا ان غلبوا هؤلاء المهاجمين واستولوا على المدن التي كانت مهدهم الاول في عيلام وسومر واكد وبابل ،وتغلبوا على فنيقية ومصر ،وظلوا مائتي عام كاملة يسيطرون بقوتهم الوحشية على بلاد الشرق الادنى .."

" ولقد برز الملوك الاوائل لآشور في القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد كتابعين لملوك الدولة البابلية الاولى . ثم ارتفع شان آشور واعلنت استقلالها عن بابل في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وفي عام ٧٢٩ ق.م استولى الملك تغلات فلصر الاول على بابل والحقها بآشور .."

" كان الآشوريون خليطا من الساميين الذين وفدوا اليها من بلاد الجنوب المتحضرة ( امثال بابل واكد ) ،ومن قبائل غير سامية

---

* المرجع السابق ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨

جاءت من الغرب ( لعلهم من الحثيين او من قبائل تمت بصلة الى قبائل ميتاني ) ومن الكرد سكان الجبال الآتين من القفقاس. واخذ هؤلاء لغتهم المشتركة وفنونهم من سومر ،ولكنهم صاغوها فيما بعد صياغة جديدة جعلتها لا تكاد تفترق في شيء عن لغة اور بابل وفنونها .."

"... ان اول الاسماء العظيمة في تاريخ آشور هو اسم تقلات فلصر الاول .. وقد ساق هذا الملك جيوشه في كل اتجاه فاخضع الحثيين والارمن واربعين امة غيرهما ،واستولى على بابل ، وارسلت له مصر الهدايا .."

- "... استولى آشور ناصر بال على اثنتي عشرة دولة صغيرة ..."

- "... مد سلما نصر فتوحه الى دمشق .."

- "... جيش تقلات فلصر الثالث جيوشا جديدة واستعاد ارمينية واجتاح سورية وبابل ،واخضع لحكمه دمشق والسامرة ،ومد ملك آشور من القفقاس الى مصر .."

- وجلس على العرش سرجون الثاني .. وقاد جيوشه بنفسه .. وهزم عيلام ومصر ، واسترد بابل وخضع له اليهود والفلسطينيون بل واليونان وقبرص .."

- "... وقضى سنحريب ( ابن سرجون الثاني ) على الفتن التي ثار عجاجها في الولايات المجاورة للخليج العربي .. الا انه ارتد على حدود مصر .."

- "... قام عسرحدون ( ابن سنحريب ) وانتزع العرش من اخوته وغزا مصر ليعاقبها على ما قدمته من المعونة للثوار السوريين ،وضمها الى

املاكه ، واهش غرب آسية بسيره المظفر من منف الى نينوى ومن خلفه مالا يحصي من المغانم ، وجعل آشور سيدة بلاد الشرق الادنى باجمعها ، واضاء عليها من الرخاء ما لم يكن به عهد من قبل ..."

- "... وجنى خلفه ( خلف عسر هدون ) اشور بنيال ( وهو الذى يسميه اليونان سردنا بالوس ) ثمرة هذه الاعمال ، فوصلت آشور خلال حكمه الطويل الى ذروة مجدها وثروتها ..." *

ثالثا : الامبراطورية الفنيقية التجارية - قامت العلاقات الوطيدة بين شرقي البحر المتوسط وبين الشمال الافريقي وتطورت بنمو العلاقات التجارية وبتقدم وسائل النقل البحرى . وقد اسهم الفنيقيون بالقسط الاكبر في ربط غربي آسيا بشمالي افريقيا . وتاريخ قدوم هذا القوم الى شاطئ البحر الابيض المتوسط هو "حسب ما قاله علماء صور لهيرودوت : ان اجدادهم قدموا الى بلدهم هذا من شواطئ الخليج العربي منذ القرن الثامن والعشرين قبل ميلاد المسيح ( يمكن القول ان قدومهم كان بنتيجة الهجرات المتقابلة بين اقطار المنطقة كما اشرنا اليه قبلا : من عندنا ) .. وعاش الفنيقيون على ظهر البحار ، وظلوا من عهد الاسرة السادسة الى ما بعدها انشط تجار العالم القديم ، ولما تحرروا من حكم مصر ( حوالى ١٢٠٠ ق.م ) اضحوا سادة البحر الابيض المتوسط ، ولم يكتفوا بنقل التجارة ، بل كانت لهم مصنوعات عدة من الزجاج والمعادن والمزهريات المنقوشة المطلية والاسلحة والجواهر . وقد احتكروا لانفسهم صنع الصبغة الارجوانية .. وكانوا ينقلون هذه المصنوعات والفائض الذى يمكن نقله من غلات الهند والشرق الاقصى من حبوب وخمور ومنسوجات واحجار كريمة الى موانئ

* المرجع السابق ص ٢٦٥ - ٢٦٩

البحر الابيض المتوسط . وكانت سفنهم تعود من هذه الموانئ مثقلة بالرصاص ،والذهب ، والحديد من شواطئ البحر الاسود الجنوبية ،وبالنحاس وخشب السرو والغلال من قبرص ،وبالعاج من افريقية ،والفضة من اسبانيا .. وكانت سفنهم المنتفخة الضيقة البالغ طولها نحو سبعين قدما طرازا جديدا في بناء السفن .. وارتقى على ايديهم فن الملاحة شيئا فشيئا حتى استطاع ادلاء السفن الفنيقيون ان يسترشدوا بالنجم القطبي ( او النجم الفنيقي كما كان يسميه اليونان ) .. واقاموالهم حاميات في نقط منيعة على ساحل البحر الابيض المتوسط مازالت تكبر حتى اضحت مستعمرات او مدنا غاصة بالسكان اقاموها في قادس وقرطاجة ،ومرسيليا ، ومالطة ، وصقلية ، وسردينية ، وقورسقة .. ونقلوا الفنون والعلوم من مصر وكريت والشرق الادنى ،ونشروها في اليونان وافريقيا .. وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية .. " *

رابعا : سورية - "كانت سورية تمتد خلف فنيقية في حجر تلال لبنان ، وتتجمع فيها قبائلها تحت حكم تلك الحاضرة التي لاتزال تفخر على العالم بانها اقدم مدنه ،والتي لاتزال تأوى السوريين المتعلمين الى الحرية . وظل ملوك دمشق زمنا يسيطرون على اثنتي عشرة امة صغيرة من حولهم .. وكانت ازياء الاهلين في دمشق وعاداتهم شديدة الشبه في بابل ، باريس الشرق القديم المتحكمة في اذواقه .. ان الآراميين الكثيري النسل قد انتشروا في كل مكان وجعلوا لغتهم اللهجة العامية التي يتخاطب بها اهل الشرق الادنى ،كما ان حروفهم

---

* ذات المرجع ص٣٠٨ - ٣١٦

الهجائية التي اخذوها عن المصريين او الفنيقيين قد حلت محل كتابة ارض الجزيرة .. واصبحت آخر الامر لغة المسيح وحروف العرب الهجائية في هذه الايام .. "*

خامسا : مهد الجنس السامي : ان الرافد الاساسي للامة العربية ،الرافد الذى احتوى كل الروافد الاخرى في نهاية الامر ،فاعطاها لغته وبلور وحدتها النفسية ،كان رافد الجزيرة العربية . ولم يكن خروج العرب من جزيرتهم وانتشارهم في شتى اقطار الامة العربية بمناسبة ظهور الاسلام فقط وانتشاره على ايديهم ، بل ان موجاتهم لم تنقطع ابدا في كل العهود التاريخية : قبل الثورة الاسلامية الكبرى وبعدها .

" .. ان التجارة مزجت لغات اقوام الشرق الادنى وعاداتهم وفنونهم في طرقها الرئيسية ( كالطريق الممتد على شواطئ النهرين الكبيرين من نينوى وقرقميش الى الخليج العربي ) . هذا الى ان هجرة الشعوب ونقل جماعات كبيرة منها قسرا لاغراض استعمارية قد مزجا الاجناس واللغات المختلفة ( كان هذا المزج قبل الاسلام ،اى قبل تبلور مختلف الروافد المذكورة اعلاه في امة واحدة متجانسة نفسيا ولغة : من عندنا ) .. ومهد الجنس السامي ومرباه جزيرة العرب . فمن هذا الصقع الجدب حيث ينمو الانسان عديدا عنيفا .. تدفقت موجة اثر موجة في هجرات متتابعة من خلائق اقوياء عديدى الباس لايهابون الردى .. وظلوا وقتا ما يسيطرون على التجارة مع الشرق الاقصى ، تتكدس في ثغورهم غلات الهند ، وتحمل قوافلهم تلك الغلات وتنقلها في الطرق البرية غير الآمنة الى فنيقية وبابل . وشادوا

---

* ذات المصدر ص٣١٧

في قلب جزيرتهم العريضة المدن والقصور والهياكل ..." *

ولقد اسس العرب عددا من الممالك الهامة خارج جزيرتهم كمملكة تدمر ومملكتي الغساسنة والمناذرة . بل ان من شبه المؤكد ان الهكسوس الذين حكموا مصر نحو قرنين من الزمان ،وبالتالي تركوا فيها آثارا لايمكن ان تمحى من لغتهم وسلالتهم ،كانوا من القبائل التي اتت من الجزيرة العربية .

الثورة الاسلامية الكبرى- نرى اذن بعد هذا العرض التاريخي ان روافد الامة العربية ( اصولها ) في اقطارها المختلفة ( من الجزيرة العربية وسورية ومابين النهرين ومصر الى الشمال الافريقي والسودان ) قامت بالدور الرئيسي في تاسيس جملة المجتمعات الانسانية في منطقة البحر الابيض المتوسط ، وذلك منذ فجر المشاعة البدائية حتى زمن متاخر من طور العبودية . وقد اخذت هذه الروافد لهذا السبب مكانا بارزا في جملة المجتمعات هذه ،وتكونت فيها كجزء من اهم اجزائها . ولم يقتصر دور الامة العربية على هذا الامر فقط ،فقد مر معنا ان الثورة الاسلامية التي اقامت طور العرفة الحرة انتهت الى توحيد جمل المجتمعات العالمية الثلاث ( التي كانت قائمة في مناطق البحر الابيض المتوسط والهند والصين ) في جملة مجتمعات عالمية واحدة ، بتحطيم الحواجز الجغرافية بين تلك الجمل خلال الطور العالمي المذكور . فالمسيرة التاريخية العالمية ( التي هي في واقع الحال مسيرة نشوء وتكامل جملة المجتمعات الانسانية الممتدة على كل اصقاع الكرة الارضية ) جعلت اذن من تكوين الامة العربية وتطورها عنصرا اساسيا من عناصرها . لذلك كان وسيبقى كيان هذه الامة ركنا من الاركان الاساسية في بناء

* ذات المرجع ص ٣٠٨ - ٣١٠

جملة المجتمعات الآنفة الذكر .

قامت الامبراطوريات الآرية ( امبراطوريات الفرس واليونان والرومان) في منطقة البحر الابيض المتوسط ، في ذروة الدور العبودي ،وفي ظلها وقعت الامور التالية :

اولا : استمرت الاقوام روافد الامة العربية في مختلف اقطارهـا في المساهمة في بناء الحضارات العالمية ضمن نطاق تلك الامبراطوريات : ان مئات الحضارة في تلك الاقطار ،في بابل وفنيقية ومصر وقرطاجة وتدمر وصنعاء الخ .. لم تبق قائمة حينذاك نحسب ،بل ازدادت نموا بتطور المعرفة ونمو الوسائل . كما ساهمت تلك الاقوام مساهمة فعالة في تكوين المجتمعات الحضارية في عواصم تلك الامبراطوريات ، سيما منها الرومانية . فالعديد من العلماء والمهندسين والقادة والاباطرة في روما كانوا من العرب .

ثانيا : استيقظت الذات العربية لوجودها ودورها في بناء الجملة الانسانية بنتيجة الاحتلال الاجنبي . فالاقوام اصول الامة العربية ،بعد قيادتها المسيرة الانسانية في بناء جملة المجتمعات في منطقة البحر المتوسط طيلة عشرات القرون ،وجدت نفسها تابعة ومغلوبة على امرها من قبل اغراب لايشبهون اى قوم منها . الامر الذى ادى بها الى اكتشاف عمق مابينها من قرابة بالنسبة الى الاجانب المحتلين . فتبلورت بنتيجة الامر الحدود الفاصلة بين الاصول المذكورة للامة العربية وبين غيرها من امم المنطقة . وبعد الثورة الاسلامية ( عندما امتدت الامبراطورية العربية الى اقطار عديدة غير عربية ) وضعت تلك الروافد في تجربة تاريخية اخرى ،متممة التجربة السابقة ،بحيث اختمرت

من جديد ذاتها من الامم والاقوام الاخرى من موقع آخر هو نظير الموقع السالف: في السابق ميزت ذاتها كروافد تخضع لحكم أجنبي ،وبعد قيام الامبراطورية العربية ميزت ذاتها وهي تحكم اقطارا اجنبية شاسعة بعد ان توحدت. ثم ان اندماج جميع هذه الروافد في ظل تلك الامبراطورية اثناء انجاز تلك المهمة التاريخية الحاسمة( اثناء اقامة طور الحرفة الحرة وتوحيد جمل المجتمعات الانسانية في العالم في جملة واحدة ) ابرز نهائيا وبشكل حاسم تكامل ادوار هذه الروافد في بناء هذه الجملة ،تكاملها كعناصر دور اعم لامة واحدة تضمها جميعا.

ثالثا : ان قيام الامبراطوريات الآرية العبودية ،سيما منها الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ،مزق جملة المجتمعات الانسانية في منطقة البحر الابيض المتوسط ،بالاضافة الى زيادة عزلة هذه الجملة عن الجملتين الاخريين في الهند والصين. فالحروب الازلية التي قامت بين الروم والفرس اوقفت التجارة وقطعت الصلات الطبيعية بين شرقي المنطقة وغربها ،كما قطع الطريق امام تقدم المنطقة بكليتها نحو الاتصال بالهند والصين ،لتندمج بالتالي هذه المناطق الثلاث في عالم واحد. وكان اول المتاثرين بهذه الحالة السلبية اقوام الجزيرة العربية ومصر وسورية والعراق ،الروافد الرئيسية للامة العربية.

ان تلك الحالة ،حالة انقسام الجملة الانسانية ،بالاضافة الى الانحدار المستمر للاقتصاد العبودي لهذه الجملة نحو الجمود : بقيام الاقطاعات وانتشار الاقتصاد الطبيعي ،وبالتالي جمود التجارة وتقطع العلاقات فيما بين الاقاليم والاقطار في عصر تقدمت فيه الوسائل :

وسائل الانتاج ووسائل الاتصال ، نقول ان تلك الحالة خلقت وضعا متفجرا في المناطق العربية التي كانت تضطلع بمهمة تعزيز وتطوير مختلف العلاقات التجارية والاجتماعية : ضمن جملة مجتمعات المنطقة وبين هذه الجملة والجملتين الاخريين في الهند والصين • ولقد قامت محاولات عدة ( قبل المحاولة الاخيرة الحاسمة ، قبل الثورة الاسلامية ) لايقاف هذا التدهور في نمو وتكامل جملة المجتمعات الانسانية ،وكان من اشهرها تجربة الامبراطورية التدمرية ( امبراطورية التجار التدمريين ) التي انهارت بعد ان سارت شوطا بعيدا في طريق النجاح • والجدير بالملاحظة هنا هو : ان بناة هذه الامبراطورية اتجهوا نحو جمع روافد الامة العربية في سورية ومصر والجزيرة العربية والعراق ،ولم يتجهوا نحو احتلال روما الذى ما كان صعبا في تلك الايام التي كثرت فيها الانقلابات العسكرية في الامبراطورية الرومانية • وهذا يعني ان تلك الحركة التدمرية كانت خروجا على مالوف تلك الايام : كانت ثورة تهدف التغيير الجذرى في احوال المنطقة • فاحتلال روما كان يؤدى الى تنصيب زنوبيا ( التي كان زوجها اذينة شيخا في مجلس الشيوخ الروماني ،ثم قنصلا ونائبا للامبراطور في المشرق ) على عرش الامبراطورية فلا يحدث اى تغيير في الحال حينذاك • اما قيام الامبراطورية التدمرية في المنطقة العربية ،في مركز المدنية في تلك الايام ، بعيدا عن اوربا الغارقة في الجمود والظلام ( الا بعض اطرافها كايطاليا واليونان ) ،فكان يعني القضاء على الامبراطورية الرومانية ،- وبالتالي القضاء على طور باكمله ،القضاء على طور العبودية •

ان تقدم وسائل الانتاج يوفر المزيد من البضائع للاسواق ،بينما

يوفر تقدم وسائل النقل مزيدا من الامكانات لنقل البضائع الى الاسواق البعيدة وعبر المسالك الصعبة • وقد مارس العرب فنون النقل عبر البحار وعبر الصحارى عصورا طويلة وطوروا هذه الفنون" وظلوا وقتا ما يسيطرون على التجارة مع الشرق الاقصى ،تتكدس في ثغورهم غلات الهند وتحمل قوافلهم تلك الغلات وتنقلها في الطرق البرية غير الآمنة الى فنيقية وبابل ..." * • وقد وفرت لهم جزيرتهم موقعا ممتازا في العالم • فهي تطل من جهة على البحار التي تقع عليها الهند وجنوبي شرقي افريقيا ،وتتصل من جهة اخرى عبر صحاريها بغربي آسيا ومصر ،وبالتالي بكل منطقة البحر الابيض المتوسط • ثم ان اقامة الخطوط التجارية الطويلة عبر الصحارى والبحار يتطلب السيادة على المناطق التي تمر بها هذه الخطوط الى جانب توفير الامكانات المادية لحيازة وتنظيم وسائل النقل • وما كان بامكان احد في تلك العصور ( من الازمنة المتقدمة حتى اواخر عهد الرق ) ان يزاحم العرب في سيادتهم على صحاريهم وبحارهم • وحتى عندما كان النفوذ الاجنبي يمتد الى بعض مناطق الجزيرة ( كالنفوذ الفارسي والنفوذ الحبشي على اليمن ) فان العرب كانوا يبقون دوما اسيادا في قوافلهم عبر الصحراء ومراكبهم عبر البحار • وهنا يجدر بنا ان ننتبه الى الامر الهام التالي : ان التنقل عبر الصحراء يطرح مشاكل وصعوبات تشبه الى حد بعيد ما يصادفه الانسان الذى يركب متن البحار • ففي الصحراء مسلك على المسافر معرفتها ، ومفاوز ومهالك يجب تجنبها • كما ان معرفة مراكز التموين بالماء والغذاء فيها ليس بالامر الهين • والسير فيها لايحمد في كل آن وانما له اوقاته المناسبة • وهي

---

* المرجع السابق ص٢٠٨ - ٢١٠

تبتلع الفئة الصغيرة المعزولة ولا تتحمل زمنا طويلا الجحافل العريضة الثقيلة . فالفئات المعزولة فيها تهلك في صعوباتها ،اما الجحافل الثقيلة فهي عبء لاتتحمله مواردها الشحيحة طيلة سفر بعيد عبرها فيهلكها ثقلها . وقد وجد العرب حلولا لكل هذه الصعاب بالتجربة الطويلة والممارسة اليومية . فهم ابناء هذه الصحراء ،واحاتهم جزر فيها ،ومدنهم موانئ عليها . فكانوا على دراية كبيرة بكل مشاكلها ، كما ملكوا الوسائل اللازمة للتغلب على صعابها . وكان من اهم هذه الوسائل :

- الجمل ، سفينة الصحراء والوسيلة التي لاتضاهيها وسيلة في تلك الايام لتنظيم القوافل الكبيرة والخفيفة الحركة في ذات الوقت . فهذا الحيوان صبور على الجوع والعطش ، قادر على تحمل المشاق والمسيرات الطويلة ،قوي على حمل الاثقال مجلود على قيظ ظهيرة الصحراء وقر ليلها ،وهو يطوي بخفافه الارجة على رمالها كما تطفو السفينة بقلوسها على الماء . وهو عند الضرورة يشكل بلحمه غذاء ممتازا وبمعده الاربعة خزانا للماء . وكان العرب يستخدمونه بالمئات وبالمئات في كل قافلة من قوافلهم ،فيحصلون بهذا على قدرة كبيرة للتغلب على كل صعوبة تعترضهم في اسفارهم عبر صحاريهم . ولقد كانت القافلة بالجمل جزيرة خضراء متنقلة في الصحراء تلبي كل متطلبات المسافر .

- الخيل ،وكانت درع القافلة وعينها ،بالاضافة الى انها كانت تحمل المسافرين . فالحصان وسيلة نقل سريعة لاستطلاع الطارق امام القوافل ،وهو يمكن من التدخل السريع والحاسم ضد لصوص الصحراء .

وكانت الجمال والخيل توفر للعربي قدرة ومرونة فائقتين في حركته في الصحارى . وفي كثير من الاحيان كانت انجازات العرب في مجال اجتياز المسالك الصحراوية الطويلة الصعبة تبدو معجزة بنظر غيرهم من الاقوام التي ما كانت تملك ما يملكون من وسائل وتجارب في هذا المجال . فالاجتياز الشهير الذى انجزه مثلا خالد بن الوليد عبر الصحراء الشامية بقواته من العراق الى الشام ،في فترة زمنية قصيرة ،من طريق صعب لاماء فيه ،بدا للرومان امرا معجزا لا يصدق وفاجاهم مفاجأة تامة .

- النظام والعلاقات التي كانت سائدة في الجزيرة العربية : ان انقسام العرب الى حضر وبدو ( الى مدر ووبر ) وفر امكانات كبيرة لتربية المواشي باعداد كبيرة ( وخاصة تربية قطعان الجمال والخيل ) لدى القبائل الرحل من جهة ،ووفر من جهة اخرى مجتمعات مدنية تقوم بتنظيم كل ما يتعلق بالتجارة من امور : تنظيم الاسواق ،النقل ( القوافل ) ،العلاقات المتشعبة مع مختلف الجهات صاحبة العلاقة الخ .. لقد كان وما يزال الترحال لاتباع الكلأ افضل وسيلة للحصول على اكبر مردود من العطاء الشحيح للاراضي الصحراوية والاقاليم الجافة بشكل عام . وصحيح ان الجزيرة العربية وامتداداتها نحو الهلال الخصيب تقع حول مدار السرطان ( اى على حد الصحارى العالمي: من الصحراء الكبرى الافريقية الى صحراء غوبي في شرقي آسيا ) وتتغلب لذلك عليها الصحارى ،الا انها من جهة ثانية تقع تحت مؤثرات اخرى كالرياح الموسمية في جنوبها ( مناطق اليمن وعمان ) والبحر الابيض المتوسط في بادية الشام ( الحماد ) . وهذا بالاضافة الى وجود العديد

من الواحات والمراعي في مختلف ارجائها • وكان هذا كافيا لتربية القطعان الكبيرة والعديدة من الجمال والخيل والمواشي الاخرى باسلوب التنقل لانتجاع الكلأ لدى القبائل الرحل • وكانت تقوم ايضا زراعات كثيرة ومتنوعة في الواحات وحول المدن ( التمر ومختلف انواع الخضار والفواكه الملائمة للاقليم ) تكفي حاجات السكان •

كان شكل المدينة ـ الدولة منتشرا في الجزيرة العربية قبل الدعوة الاسلامية • وكان النظام السائد في هذه المجتمعات المدنية نظام شورى جمهوري في جوهره كالذى كان يقوم في المدن التجارية اليونانية مثلا قبل امبراطورية الاسكندر ،والمدن الايطالية في عصر النهضة • في مثل هذه المدن تسود ديموقراطية طبقة التجار • وينصب الاهتمام الاول لهذه الطبقة على التعاون لتوفير كل الوسائل واقامة كل العلاقات المناسبة لضمان ازدهار السوق • وافضل مثال على هذه المدن كانت مكة • فالخدمات والمسؤوليات المختلفة كانت تقسم بين العائلات في قريش : كانت سدانة الكعبة مثلا لبني امية ،والسقاية ( وهي في الواقع مهمة تنظيم اقامة الضيوف الوافدين الى مكة في المواسم التي كان من اهمها موسم الحج ) لبني هاشم ،وامارة الجيش ( تنظيم القوافل وحمايتها ) لبني مخزوم • وقد يتغير هذا التوزيع للمهام حسب الظروف والاحوال السياسية • وفي كل الاحوال عندما كان البلد يواجه امرا او خطرا او موسما الخ.. كان المسؤلون فيه ( او مندوبو العائلات ،او من كانوا يدعون اصحاب الراى ) يجتمعون في الندوة ( التي هي شكل من اشكال البرلمان ) لبحث الامر ومناقشته ،واقرار خطة العمل ،وتوزيع المهام على مختلف العائلات •

وكان للعرب اسواق تعقد حسب المواسم وفي اماكن ترتبط بالجهات التي ترد منها البضائع : اسواق للحجاز وشمالي الجزيرة مثلا من اجل تبادل السلع مع العراق وسورية ومصر ، واسواق اليمن وجنوبي الجزيرة من اجل التبادل مع الحبشة وشرقي افريقيا ،اسواق عمان والخليج العربي للتبادل مع فارس والهند وجنوبي شرقي آسيا . فنرى ان هذه الاسواق الموزعة حول الجزيرة العربية وعلى اشهر السنة ( كل شهر سوق ) ،والمرتبطة بكل انحاء العالم المعروف حينذاك ،جعلت هذه الجزيرة في تلك الايام " موزع " تجارة العالم ( سنترال الخطوط التجارية العالمية ) . وكان من اشهر هذه الاسواق : سوق عكاظ ،الذى كان يعقد مدة عشرين يوما من شهر شوال من كل عام بموضع يبعد عن مكة مسيرة ثلاثة ايام بين نخلة والطائف وذى المجاز . اما الاسواق الاخرى فهي : دومة الجندل ،وهجر في البحرين ، وعمان ،وعدن ،وصنعاء ،وحضرموت ،وذى المجاز ،وضمار ،والشحر ، والمشقر ، والجنة ، وحباشة .

كانت سوية الحياة المادية والفكرية لعرب الجزيرة مرتفعة ، وهذا امر طبيعي نتيجة لكونهم حينذاك في مركز عالم التجارة والاعمال . وما كانوا ، كما صورهم من جهة الحاقدون ومن جهة ثانية الجامدون ،غليظا من المعدمين الجهال . فاشعارهم تدل على سوية فكرية عالية ،كما كان فيهم من يستطيع لفرط ثرائه ان يجهز جيوشا كاملة بمفرده كما كان يفعل الصحابي عثمان بن عفان . وقد اتى القرآن باعجازه شكلا ومحتوى على قدر المقول في امة صاحب الرسالة نبينا محمد عليه السلام ،ولينظم مجتمعا تجاريا مرتفع السوية وليس

وليس مجتمع شحانين معدمين كما يصوره البعض: تنظيم العقود والبيوع والميراث والحض على الوفاء بالكيل والميزان وتحريم الفض الخ ..
وقد يقول البعض ان القرآن لكل الناس وليس للعرب فقط ،والجواب انه على كل حال للعرب قبل غيرهم ،وقد بدأ بطبيعة الحال بهم قبل اية امة اخرى ،وكان عليهم ان يحملوه رسالة الى بقية الامم ، فلا يمكن ان يكون فوق مداركهم .

ان بالامكان اذن ان نؤكد ان العرب كانوا من الناحية الاجتماعية متفوقين على العموم ( في المتوسط ) على معاصريهم من الاقوام الاخرى القريبة والبعيدة في عصر الدعوة الاسلامية . وكانوا يتمتعون بصفات ومعنويات عالية حينذاك . فقد قال نبينا محمد عليه السلام : انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق . وقد سبق واشرنا الى ان الحروب الازلية بين الفرس والرومان كانت تمزق العالم فكان اول المتضررين بها والشاعرين بويلاتها سادة تجارة ذلك العصر عرب الجزيرة الطامحون ( بحكم طبيعة عملهم وممارساتهم ) الى اقامة اوسع الصلات بين مختلف البلدان والاقوام ، الى توفير اوسع مناطق عالمية للسلام . كما ان النظامين العبوديين الرجعيين في فارس وبيزنطة كانا في تلك الاثناء ينحدران اكثر فاكثر في مستنقعات الجمود والاقتصاد الطبيعي . فكان لابد من العمل على تغيير هذه الانظمة وتحرير اليد العرفية من العبودية والاقطاع العبودي ليتسع الانتاج وتتسع الاسواق . ولقد كان العالم بتقدم وسائله مهيأ لثورة تهدم كل الحواجز بين مختلف مناطقه فتوحد جمل المجتمعات الانسانية في جملة واحدة . وفي الواقع ،كان الناس ( بحكم تماسهم مع واقع تلك الايام ) يشعرون بضرورة هذه

الثورة وينتظرونها بانتظار امر من "السماء" يغير الحال الذى يجب ان يتغير ،بانتظار نبي .. فكانت الدعوة المحمدية والثورة الاسلامية الكبرى التي دفعت العالم في برهة زمنية وجيزة الى تغير جذرى جملته يختلف به كليا عما كان عليه من قبل . فبدأ بهذا طور جديد هو طور الحرفة الحرة : اساس اول تجارة عالمية منظمة تغطي المناطق الثلاث : البحر الابيض المتوسط والهند والصين ،فتجعل منها مناطقة عالمية واحدة لجملة مجتمعات انسانية واحدة . وفي اثناء ذلك ،في اثناء هذه العملية التاريخية الهائلة ،تجمعت روافد كل الامة العربية واندمجت بعضها بالبعض الآخر : لغة ونفسا ومصيرا . لقد اصبحت كل هذه الروافد مع عرب الجزيرة مسؤولة عن اكمال تلك المهمة التاريخية حتى نهايتها : مهمة نقل الانسان الى جملة عالمية واحدة من المجتمعات ،والتكون بالتالي نهائيا في هذه الجملة بعد مسيرتها الطويلة في اتجاه بعضها والبعض الآخر اثناء مساهمتها جميعها كما راينا اعلاه باكبر نصيب في تكوين جملة البحر الابيض المتوسط . وكان التكون في هذا الوطن العربي الفسيح ذى المركز والامكانات الفريدة في الجملة الانسانية : هنا نرى بوضوح كيف ان الامة تتكون فيكون اذن دورها في هذه الجملة تعريف لها كما سبق وقلنا اعلاه .

الطور الروحي الاعلى - كانت تلك على العموم الملامح المادية للثورة الانسانية الكبرى التي هي الدعوة الاسلامية التي ختمت واحتوت وطورت كل دعوات التوحيد التي سبقتها وحققت وتممت كل اهداف تلك الدعوات في هدم طور عبودى مظلم واقامة طور من اجمل

الاطوار الانسانية واعدها اشراقا . وديانات التوحيد ظهرت حيث كانت تقوم الازمات الشديدة في جملة المجتمعات العبودية ، وحيث كان يبرز التفسخ العميق في نظام الرق في هذه الجملة . ومع ذلك فقد بقيت الوثنية صامدة مدة طويلة ( في منطقة البحر الابيض المتوسط) امام عدد كبير من دعوات التوحيد ،وذلك لسببين متلازمين :

الاول : عدم نضج الظروف الاجتماعية لسقوط العبودية سقوطا نهائيا ،

الثاني : لم تكن الثورات التي تمثلها تلك الدعوات الدينية حاسمة من الناحيتين الفكرية والمادية .

وقد انهارت الوثنية نهائيا وسقط معها الطور العبودي بالدعوة الاسلامية التي قام بها طور الحرفة الحرة حيث اتسعت قطاعات الانتاج المرتكزة على الايدي العاملة الحرفية الحرة في كل الاتجاهات فبلغت قصور الامراء والحكام :

" وحدث الوضين بن عطاء قال : استزار ابو جعفر المنصور ،وكانت بيني وبينه خلالة قبل الخلافة ،فصرت الى مدينة السلام ،فخلونا يوما فقال لي : يا ابا عبد الله ،ما مالك ؟ فقلت الخير الذى يعرفه امير المؤمنين ، قال وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمراة وخادم لهن ،فقال لي : اربح في بيتك ؟ قلت : نعم . قال : فوالله لردد ذلك علي حتى ظننت انه سيمولني . قال : ثم رفع راسه الي فقال : انت ايسر العرب ، اربح منازل يدرن في بيتك !... " *

ونلاحظ في هذه الفقرة ان الخليفة لم يعد الخادم بين المنتجات

---

* عصر المامون للدكتور احمد فريد الرفاعي ص ٩٤ من المجلد الاول

، وانما عد البنات وامهن ( اربع حرفيات ) الامر الذي يدل على انحسار دور الخدم والعبيد في عملية انتاج السلع واتساع اليد الحرة في هذا الانتاج . ولقد كان من الطبيعي ان لاتتجاوز تلك الثورة ما كان بالامكانات المادية لعصرها ( ان لاتخرق قوانين الطبيعة وسننها ) فلا يعيبها انها جاءت مثلا لترسي طور الحرفة الحرة من سلم النشوء والتقدم الاجتماعيين . اما من النواحي الروحية والفكرية فان الاسلام :

اولا : فتح باب التقدم الانساني على مصراعيه وحث على ولوجه في كل عصر .

ثانيا : اشاد بكل مناسبة بالعقل والعلم والعلماء ، وحارب الجهل والتجهيل ،وشجع على الدوام التفتح على الواقع والتامل فيه ، وامر بان يكون حكم العقل مبنيا على العلم والمعرفة .

ثالثا : لم يقيد الانسان بنظام مادي معين ،وانما حثه على ان يطلب الافضل والاحسن لكل الناس في كل عصر .

رابعا : تعاطف دوما مع كل من وقف في وجه الطغيان وثار على الطغاة في كل العصور التي سلفت ،وبلغ احترامه لمن كافح الظلم والقهر بان رفعه الى مراتب القداسة .

خامسا : وقف بشكل مطلق ضد هدر حقوق الانسان ،وحرم بخس الناس اشياءهم ناهيك عن استغلالهم الوحشي وناهيك عن سفك دمائهم بالجملة . فالتقدم الذي حققه النظام الراسمالي مثلا كان يغني عن تلك الجرائم البشعة التي ارتكبها ابناؤه في حق الامم التي ابتليت باستعماره ،وما كان ابدا بحاجة الى تلك الحملات المجرمة

التي ابادت شعوبا باسرها حتى ابيدت ارض افريقيا وآسيا واميركا بنظام عشرات الملايين الذين سقطوا ضحايا له . وما زلنا حتى ايامنا هذه نشاهد سقوط الضحايا بالالوف والملايين بعدوانية هذا النظام : في الجزائر ،والفيتنام وفلسطين ، والشرق العربي حول فلسطين ، وكوريا ،وافريقيا ،واميركا اللاتينية ،بايدى الاميركان او بايدى عملائهم من كل نوع . فهل هنالك من مجال لمقارنة هذا النظام مع النظام الاسلامي من جهة الاستجابة الى الطموحات الروحية والمادية للانسان؟.. لقد جاهد المسلمون من اجل اخوة الانسانية وبذلوا دماءهم في سبيل تحقيقها ،فارتفعت منائر العلم والتقدم في كل ارض حلوا فيها : من الصين الى اوربا ،وازدهر اقتصاد الامم في نظامهم ونبت المفكرون والفنانون العمالقة بالالوف المؤلفة في كل مجالات النشاط العقلي والروحي هنا وهناك بدون تمييز في كل قطر امتد اليه نظامهم . فالاسلام ( نقيض الراسمالية التي لم تحمل الى كل مستعمرة ابتليت بها الا القهر والتخلف بالاضافة الى انها كنظام عالمي فاقت بوحشيتها كل نظام سلف في عهود التاريخ ) لم يبن فقط حضارة عظيمة في طوره الذى اقامه في الجملة الانسانية ، وانما كان مثالا لنقاء الروحانية وسمو التفكير وعمق الانسانية الحقة التي اعطت اجمل حل لمسألة تعايش الامم وتعاونها بسلام واخوة في الجملة الانسانية .

سادسا : فصل الاسلام في القضية الشائكة القائمة بين الفرد والجماعة . فحرية الفرد فيه لاتعني الفردية الانانية الشرهة في استغلال الآخرين ،وهي لاتتعدى تبادل المنافع في حدود النظام العادل .

كما لاتعني حقوق الجماعة وسلامة نظامها الصبر على الافراد والوصاية على عقولهم وضمائرهم ، وبالتالي قيام اجهزة زبانية تسحقهم وترميهم في المعبودية : اى قيام فئة قليلة ( بيروقراطية ) تسحق الجماعة في النتيجة باسم "حماية النظام من اجل الجماعة ..." . فحق الجماعة يقف في حدود الشريعة السمحة المتفهمة التي قامت من اجل الناس وصلاح معاشهم وراحة نفوسهم وامنهم في ظل التساوى في الحظوظ . والشريعة السمحة هي النظام ،اى نظام مادى في كل عصر من العصور يتخذ من العقيدة الاسلامية روحا له . وان ضمان التوازن بين الفرد والجماعة في الاسلام هو قبل كل شيئ في ايمان المسلم ونزاهته في عقيدته واخلاصه لها ( وفي صفائه من الدجل والجمود والوثنية ) . ومن جهة اخرى في الراى العام الذى يحيط به ويستحسن طيب العمل ويشجعه ويساعد عليه ،ويستهجن خبيثه ويقاومه ( فيكون بالضرورة متفتحا متفهما وليس مغلقا باية ديكتاتورية او اى نوع من انواع القسر الذى يخنق الناس في سجن كبير يكتم انفاسهم ويشل فعاليتهم في النشاط الايجابي لكل فرد منهم ) . واخيرا لا بد من الحزم لصيانة حدود النظام وحمايته من تجاوزات اعدائه الحقيقيين .

٥ - ثورات التوحيد : كان التفرغ للفلسفة وللبحوث العلمية في العهد العبودى مقصورا بشكل عام على طبقة السادة الاغنياء ( ما بقي هؤلاء السادة اسيادا فلم يقموا في المعبودية نتيجة غزو بلادهم من قبل اجنبي ) . وكان كهنة المعابد في بادئ الامر هم القيمون على المعرفة : فكانوا مثلا في مصر "يلقنون ابناء الاسر الفنية مبادئ

العلوم في مدارس ملحقة بالهياكل .. وبطلان احد الكهنة على نفسه اسم رئيس الاصابل الملكي للتعليم ( وقد كان يشغل المنصب الذى يصح ان نسميه في هذه الايام وزير المعارف ) " * . وقد برز عدد كبير من الفلاسفة والعلماء في طور الصبوبية خصيصا في العهدين اليوناني والروماني منه . وكان جل هؤلاء من طبقة الاسياد أو ممن يعيش في كنف الاسياد والاغنياء والامراء . وقد بلغ الفكر الانساني درجات رفيعة تدعو الى الاعجاب في تلك العهود المتقدمة من التاريخ . الا ان كل اولئك الكهنة والعلماء والفلاسفة ما تعدوا في اجتهادهم حدود تفسير الكون والمجتمع وحدود تفسير الواقع وبما يتناسب وسوية المعرفة التي بلغوها في تلك الازمنة . وما برز واحد منهم في قيادة حركة تغيير الواقع نحو الاحسن وفي قيادة حركة ثورية . وصحيح ان افلاطون والذى وصف " بعبقرى جميع مفكرى العصور الغابرة " وربما بعبقرى مفكرى كل زمن " * * حلم كثيرا بديكتاتورية العلماء في مملكة الفضيلة وعمل جاهدا لمثل هذه الديكتاتورية والا ان احلامه واعماله ما كانت لتخرج عن دائرة الصراع على السلطة في الطبقة السائدة آنذاك وفي طبقة الاسياد وما كانت بالتالي لتنتج اى تغيير في بنية مجتمعات الجملة الانسانية الصبودية فيما لو نجحت محاولاته التي افلست مع ذلك كلها . لقد كان افلاطون وكغيره من فلاسفة ومفكرى العصور القديمة الذين انغمسوا في المسائل الاجتماعية العملية ( في السياسة ) يتصور الاصلاح من " فوق " وعلى يد حاكم صالح وفاقام لذلك الاكاديمية التي كان يرمي بها الى " تنشئة باحثين سياسيين قادرين على ادارة المدن تبعا لاوامر العقل " ***

---

* قصة الحضارة ص ١٠٥ * * البير ريفو وتاريخ الفلسفة ج١ ف ص ١٦١

* * * المرجع السابق ص ١٦٤

ان "اوامر العقل" لا ترتبط دوما باتجاه التقدم ،وهي قلما لا ترتبط به عندما يعمل العقل في خدمة نظام رجعي . ومع ذلك فقد لوحق الكثيرون من الفلاسفة والمفكرين ،فحكم سقراط بالاعدام مثلا ونفذ فيه الحكم . و "بقيت الفلسفة مدة طويلة موضوع حذر من قبل اصحاب التقاليد الرومان ،الذين كانوا يقولون انها تضعف من اخلاق الشباب.. وقد اضطهد الفلاسفة ( في روما ) ،وابعدوا وسجنوا .." * الا ان الفلاسفة منذ ايام الامبراطور هدريان كانوا يعاملون احسن معاملة و "ما كان حب الحكمة كافيا لتفسير هذا التصرف المدهش للامبراطور . فمن جهة كان الفلاسفة ينشدون مديح المليك الذى كان يغدق عليهم ، ومن جهة اخرى كانوا في ذلك الزمن الذى تزعزع فيه الدين يساندون الفضائل والمعتقدات التي توفر متانة الدولة ،كانوا يدافعون عن افضل تقاليد الوثنية ضد المسيحية" ** فعلى العموم ما كان العلماء والفلاسفة في العهد المبودى يهتمون بفن تغيير العلاقات الاجتماعية بالاستناد الى القوى الثورية صاحبة المصلحة في التغيير والمدعومة من جماهير العبيد والمسخرين وكل المسحوقين بتلك النظم الوحشية ،وان كان بعضهم امثال ( كافلالون ) يقلب حاكم او حكومة دون قلب النظام العبودى ،او تكلف بتقديم بعض الاقتراحات الطوباوية او بعض الانتقادات التي لا تتعدى حدود ازعاج السلطة بعض الوقت: و "ما كان ليبقى امام الفيلسوف العاجز عن الفعل الا ان ينسحب الى خيمته ليراقب ويحكم ..." ***

هنالك الكثيرون من العلماء والفلاسفة والمفكرين الاوربيين

---

* المرجع السابق ص. ٤٤٩ ** ذات المرجع *** ذات المرجع ص١٣٩

ما يزالون حتى ايامنا هذه اسرى الاوهام والخرافات التي تولدت في مخيلاتهم بسبب تعصبهم وجهلهم وتاخر تطور نفسيتهم المليئة بالحذر والريب البدائيين ، فيستمرون بالنظر الى كل غريب ، الى كل شرقي على الاخص على انه " متوحش " لايملك بطبيعته ( وليس بظروفه ) اى مؤهل لتمثل " الفكر الاوربي " ،وكانه من طينة تختلف عن طينة " البشر " . فلفته ترن بآذانهم رنينا " وحشيا " ،وتفكيره يستند الى معطيات تختلف جذريا عن معطيات " كونهم " الخ .. ولننظر الى هذا النموذج ( من عدد لايحصى من امثاله ) لوصف الشرقي في نشرة جامعية اوربية هي : تاريخ الفلسفة ( الذى نستشهد به حاليا ) لمؤلفه البير ريفو :

" لقد طرأ تحول عميق في المشاعر الدينية قبل عصر المسيحية وسببه في الدرجة الاولى كما راينا ،وصول عدد كبير من الشرقيين الى امبراطورية الاسكندر ،اولا ،ثم الى الامبراطورية الرومانية ، اتوا من آسيا الصغرى ،ومن افريقيا ،وحتى من مناطق ابعد ،من فارس وبلاد العرب والهند . وعقول هؤلاء المهاجرين لا تدور كما تدور (fonctionnent) عقول الهيلينيين والرومان ( ما شاء الله ...) فهؤلاء الشرقيون اناس بسطاء ومخادعون في ذات الوقت ،يرتبطون بمعتقداتهم الخاصة بهم في الوقت الذى يهدفون الى فرض هذه المعتقدات على جيرانهم اليونان والرومان ( ونحن نحمد الله على ان هذا " الفيلسوف " الاوربي المتعالي على الشعوب اعترف لنا بحق جوار البشر ، اليونان والرومان : من عندنا ) . فهم بمزاجهم دعاة ( وكأن افراد مؤسساتهم التبشيرية الذين يعدون بعشرات الالوف وينتشرون في كل انحاء العالم

ليسوا من المبشرين بمزاجهم !... من عندنا ) ..." * مع انه من المعلوم ان امبراطورية الاسكندر ( كالامبراطورية الرومانية ) كانت دولة عالمية ضمت عددا كبيرا من المجتمعات المختلفة التي من جملتها المجتمعات الشرقية . وقد تسنم الشرقيون مناصب رفيعة في هاتين الامبراطوريتين وساهموا بفعالية في تطوير الفكر الانساني فيهما ،فكان منهم الفلاسفة والعلماء والمهندسون الخ .. ففي روما مثلا آثار قائمة حتى الآن من تصميم مهندسين سوريين . ومن المعروف ان من العرب من تسنم عرش الامبراطورية . فليس من المستغرب اذن ان تقوم الآلهة الشرقية في هياكل اليونان والرومان ، دون ان يكون هنالك من حاجة الى " مزاج الشرقيين في الدعاية والتبشير " وذلك تماما كما انتشرت آلهة اليونان والرومان وعباداتهم في هياكل الشرقيين ،ولكن على نطاق اوسع بكثير كما تدل عليه القطع الاثرية التي وجدت في متاحفنا وحفرياتنا والتي لا يحصى عددها .

ان الفكر الشرقي براى اولئك المتعصبين " لم يتخلص ابدا من الخرافات " * * . اما ملاحظة الواقع ،واما المنطق والعقلانية فامور لم يطورها الا اليونان والرومان وقد ورثها عنهم الاوربيون . وكان المجتمعات ( حسب ما تؤول اليه هذه الظنون ) لا تعيش ابدا في جملة انسانية تضمها جميعها فتتفاعل ضمنها ويتوارث بعضها عن البعض الآخر كان كل مجتمع منها " روبنسون كروزو معقد " يعيش حسب هذه التصورات في جزيرة منعزلة . ومما لاريب فيه ان اليونان ومن بعدهم الرومان بلغوا قمما مدهشة من المعرفة ،الا انهم ورثوا تجارب

---

* ص ٤٧٢ * * المرجع السابق ص ٢١ *** المصدر السابق

المليون سنة التي عاناها الانسان قبل عصرهم . فما كان باستطاعتهم مثلا ان يكونوا لمجرد انتمائهم الى فصيلتهم الانسانية افضل مما كانوا عليه من بدائية قبل ان يتمثلوا تلك التجارب في ظروف تاريخية مناسبة ( في ظروف العصر التي قامت بها حضارتهم ) ،كما انه ليس باستطاعتهم الآن ( في هذا العصر حيث تقدم عليهم كثير من الامم ) ان يكونوا افضل مما هم عليه في ظروفهم الراهنة .

ان العيب في الشرقيين ( " الدعاة والمبشرين بالبيعتهم " حسب تعبير ريفو ) بنظر اولئك الاوربيين هو كونهم " مصدر كل المعتقدات الدينية التي وردت الى اوربا والتي تقوم اساسا على الغيبيات فهي نقيض العلم والفلسفة القائمين على المشاهدة والتجربة والعقلانية واللذين ازدهرا عند اليونان في العصور القديمة وعند الاوربيين في العصور الحديثة ،* * * * . وكأن الشرق قد خلا في تلك الايام من كل عالم وفيلسوف!.. يقول ديورانت في قصة الحضارة :

" ان اليونان لم ينشئوا الحضارة انشاءً لان ما ورثوه منها اكثر مما ابتدعوه . وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين وجاءت الى مدائنهم مع مغانم التجارة والحرب . فاذا درسنا الشرق الادنى وعظمنا شانه فاننا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الاوربية والاميركية ،وهو دين يجب ان يؤدى من زمن بعيد " *

ثم ان محاكم التفتيش لم تزدهر ابدا عند الشرقيين وانما ازدهرت في اوربا حتى عصور متاخرة ( حتى عصر فولتير الذى حرض عليها في

---

* * * المصدر السابق * المصدر السابق ص ١٠

رسالة له الى الدوق دى شوازول ،في معرض دفاعه في قضية كالا ،بقوله : ايها الاخوة ،لنصارع النذالة حتى النفس الاخير ..).

كما ان " اليونان لم يقطعوا بشكل كامل مع تلك العادات الفكرية ( مع الخرافات والغيبيات ) .. حتى اننا نجد بقاياها عند اكثر مفكريهم عقلانية ،عند ديموقريط وعند ارسطو .." وذلك بشهادة ريفو ذاته الآنف الذكر في كتابه تاريخ الفلسفة * . ذلك لان الغيبية لا تخص شعبا او عرقا معينا ،ولا تنحصر بزمن او طور محدد ،ولا تكون بشكل ثابت، وانما تنتشر في كل الشعوب وفي كل الاوقات باشكال متعددة تتناسب مع تطور المعرفة : فكثير مما نراه اليوم عقلانيا سيكون في مستقبل الايام ( في مقاييس المعرفة المقبلة ) غيبيا ( او ساذجا على الاقل ) ،تماما كما نرى الغيبيات والسذاجة في بعض افكار الاقدمين . انها ( الغيبية ) رد العقل الانساني على امور تعوزه فيها المشاهدة والتجربة . وهي تغيب عن هذا العقل في اللحظة التي تسلح فيه نور المعرفة العلمية لتلك الامور . وهي ضرورية للانسان في مرحلة من مراحل تطوره : انها الرمز الى المجهول ( كالسين في الجبر التي تنتظر قيمتها بنتيجة حل المعادلة ) ،الرمز الذى ينتظر " قيمته بنتيجة بلوغ الانسان المستوى اللازم من التجربة للاجابة على تلك الامور . ثم ان غيبيات الوثنية التي بثت عوالم خيالية معقدة رائعة كانت في وقت ما تعبر عن نمو مخيلة الانسان وبلوغ هذه المخيلة قمما باذخة بالنسبة الى تفاهة وفقر مادية انسان المشاعة البدائية . وبالبيعة الحال تقوم القوى الرجعية

---

* المرجع السابق ص ٢١

في كل عصر باستغلال الغيبيات لمصالحها ،لذلك تعمل على تاخير التقدم على تاخير "حل المعادلة" لتبقى الغيبيات غيبيات ،لتبقى بدون جواب ( حل يغيرها ) . اذ في دياجير "المجاهيل" تقوم عمليات التجهيل وطمس الحقائق ليدوم التخلف ويسلس قياد المستغلين .

ما كان باستطاعة الثورات في جملة المجتمعات العبودية ان تبني وتطور نظرية علمية متماسكة تستند اليها لتقلب نظام الرقيق . فالتجربة الانسانية ما تعدت في ذلك الطور المجتمع العبودي بعد عهد المشاعة البدائية . وقد راينا ان العلم والفلسفة كانا حكرا لطبقة السادة وفي خدمة هذه الطبقة ،في الوقت الذي كانت فيه الغيبيات تستولي على عقول الناس وتضرب جذورها في اعمق اعماقهم ، والذي ما كانت فيه علوم الطبيعة على اختلاف فروعها منزهة عن الغيبيات .ففي مثل تلك المجتمعات كانت الثورة بحاجة الى ايمانية لتغيير النظام اكثر من حاجتها الى عقلانيات تقنع العبيد والمسخرين وكل من له مصلحة في الثورة بضرورة تغيير النظام ،بحاجة الى عقيدة متطورة نسبيا يؤمن بها الناس بضرورة التغيير اكثر من حاجتها الى بحث علمي يفهم الناس هذه الضرورة ( وهو ما كان بالامكان الا ان يكون ناقصا ومليئا بالغيبيات بسبب عدم تطور العلوم تطورا كافيا ).

ان النفي ليس شيئا مستوردا من خارج الشيء او الظاهرة (او المجتمع موضوع النفي او التغيير ) وانما ينشأ من تطوره الداخلي ذاته . والنافي والمنفي في وحدة ( وحدة المتضادات ). فالافكار الموجهة للثورة مثلا ايام الوثنية ما كان بالامكان ان تكون ضد امور غريبة

عن موضوعها ولا ترتبط بها باية رابطة • وقد سبق وقلنا ان آلهة الوثنية كانت تعبر عن اكثر النماذج شيوعا في طبقات السادة قادة مجتمعات الدور العبودى ،او ان وسطها كان يشكل صورة رمزية لطبقة السادة التي كانت بدورها تجسد في الواقع المادى افكار الوثنية • فافكار الثورة على النظام العبودى كانت لذلك نقضا للوثنية ،كانت افكارا مبنية على التوحيد •

كان الشرق العريق بالتجارب الاجتماعية البوتقة التي نضجت فيها ثورات التوحيد في جملة المجتمعات العبودية • ولم يات الشرقيون الى "جيرانهم اليونان والرومان لفرض معتقداتهم الخاصة بهم على هؤلاء الجيران تعصبا منهم لتلك المعتقدات" ، حسب تعبير البير ريفو الآنف الذكر ،وانما خرجوا الى العالم "كدعاة" ثوريين لزعزعة النظام العبودى ونسفه ،بالتالي من اساسه ،ذلك النظام الرجعي الذى كان قد تجاوز مرحلته العليا في العهدين اليوناني والروماني : خرجوا لجمع وتنظيم المستضعفين في الارض ليقلبوا هؤلاء سادتهم الذين كان زمانهم قد مضى فاصبحوا عثرة في طريق تقدم الانسان ، وذلك بدلا من ان "يقبعوا تحت خيمة ليراقبوا ويحكموا" كما قبع فلاسفة اليونان والرومان • ثم ان امبراطوريتي اليونان والرومان كانتا آخر معقلين للنظام العبودى في جملة مجتمعات البحر الابيض المتوسط ( تماما كما هي الولايات المتحدة الاميركية اليوم بتقدمها المادى الهائل تشكل آخر معقل للنظام الراسمالي الرجعي في جملة مجتمعات هذا اليوم ) فكانتا لذلك الهدف الاول لكل ثورة تحرر من ذلك النظام ...

ان عقائد التوحيد تنزه الاله عن الاشتراك في الحياة المادية للناس: تنزهه عما كانت تمثله آلهة الوثنيين ،وتنزهه عن التاثر بالتفاعلات المادية للطبيعة ،وتصفه باسمى الصفات وبالقدرة اللانهائية، وتمنع تشبيهه باى كائن مادى ،انسان كان هذا الكائن ام غير انسان . نقول ان عقائد التوحيد هذه تعبر في النتيجة عن طموح الانسان المستضعف الى التخلص من النظام العبودى والى المساواة في المجتمع الواحد وبين المجتمعات: ليس باستطاعة انسان مهما علت منزلته في الطبقة السائدة ان يتشبه بالاله اللامتناهي بصفاته ، فالناس يتساوون امام لانهائيته التي تستدعي بالضرورة وحدانيته ، يتساوون بالعبودية له . وهذا الامر يناقض تماما ما كان سائدا في الدور العبودى حيث كان قادة طبقة السادة اصحاب الرقيق لا يتشبهون بآلهة الوثنية فحسب وانما يؤلهون انفسهم في كثير من الاحيان ، فتستفحل بهذا الفروق الطبقية : الفروق بين العبيد وكل الناس العاديين وبين محيط "الآلهة طبقة السادة" . الا ان الاسباب الطبقية بقيت مع ذلك في مجتمعات التوحيد ،وبعد انقضاء فترة نقاء الايمان التي ترافق عادة قيام الدين او المذهب ( والتي هي على الدوام قصيرة ) هبطت هذه المجتمعات الى واقعها الطبقي واقدمت الطبقات السائدة فيها على تسخير العقائد الدينية لتبرير عدم التساوى والاستغلال .

ظهرت ديانات التوحيد حيث كانت تقوم الازمات الشديدة في جملة المجتمعات الانسانية العبودية ،وحيث كان يبرز التفسخ العميق في نظام الرق في هذه الجملة . ومع ذلك فقد بقيت الوثنية صامدة

مدة طويلة ( في منطقة البحر الابيض المتوسط ) امام عدد كبير من دعوات التوحيد . لكنها انهارت نهائيا وسقط معها الدور العبودى بقيام الدعوة الاسلامية التي امتدت الى الهند وتخوم الصين وجنوبي شرقي آسيا بالاضافة الى كل الاجزاء الهامة من منطقة البحر المتوسط .

ديانة اخناتون - بين اواسط القرن الرابع عشر واواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد كانت جملة المجتمعات الانسانية في منطقة البحر الابيض المتوسط تمر في ازمة عامة بعد ان مر على العصر البرونزى ما يقرب من عشرة قرون ولاح في الافق القريب ازدهار عصر الحديد . وكان المجتمع قد تعقد بتقدم وسائل الانتاج وتقدم قسمة العمل ورقي الزراعة ومختلف الحرف والفنون : " فمن الصناع من كان يعمل في نسج القماش من ادق الخيوط المعروفة في تاريخ النسج كله . وقد عثر المنقبون على نماذج من الكتان منسوجة من اربعة آلاف عام ( في مصر ) ،وعلى الرغم من عوادى الايام فان خيوطها قد بلغت من الدقة حدا لا يستطيع الانسان معه ان يميزها من خيوط الحرير الا بمجهر ..." * . وتقدمت التجارة وبرز الفنيقيون الذين كانوا حينذاك قد طوروا صناعة السفن ومخروا بها لجج البحار . وظهرت اول اشكال النقد واعمال السفتجة : " لما اخذت المعادن الثمينة تتدفق على مصر بعد فتوح تحتمس الثالث شرع التجار يؤدون ثمن مايبتاعونه من البضائع حلقات او سبائك من الذهب تقدر قيمتها بالوزن في كل عملية تجارية .. على ان نظام الائتمان قد نشأ بينهم وارتقى ،وكثيرا ما كانت التحاويل والصكوك المكتوبة تحل محل المقايضة او الدفع فورا .. " * * فمع كل هذا التقدم في مصر وبابل

---

* قصة الحضارة الآنف الذكر ص ٨٦ * * ذات المرجع ص ٨٩

وغيرهما ، اصبحت العلاقات القائمة في وبين مجتمعات الجملة الانسانية حينذاك غير صالحة . تلك العلاقات العبودية التي لا تجعل للسيد السلطة المطلقة على العبد فتملكه كيانه ومصيره فحسب ، وانما تجعل ايضا لكل من هو اعلى في السلم الاجتماعي على من هو ادنى سلطة مطلقة تبلغ عند الفرعون او الملك سلطة الاله ، وذلك كما تصفه وصية مؤسس الاسرة الثانية عشرة امنمحيت لولده :

" حين تكون ملك الارض ،

وتزيد فيها الخير :

اقس على جميع من هم دونك

فان الناس لا يعنون الا بمن يرهبهم .." *

كان التناقض الرئيسي في مجتمع ذلك العهد يقوم بين طبقتي التجار والكهنة . فمصلحة التجار كانت في ازالة الحواجز والقيود الشديدة بين مختلف مناطق جملة المجتمعات الانسانية ،وفي نشر الامن على طرق التجارة ، وتوجيه الايدى العاملة نحو انتاج ما يمكن نقله والاتجار به وليس في تبذيرها بمئات الالوف في نقل الاحجار الضخمة مثلا لبناء صروح لا فائدة عملية منها كالاهرامات والهياكل وما شابه . اما الكهنة فكانوا حينذاك يمثلون احد انواع الرجعية سوادا وتفسخا . فهذه الطبقة التي كان لها فيما مضى ، قبل عهد الامبراطوريات ، دور ايجابي في جمع العلوم وفي نشر التعليم في المجتمع الذى كان قد خرج من المشاعات البدائية ،والتي كانت " دعامة العرش والعرفاة السرية القوامة على النظام الاجتماعي " * *

---

* المرجع السابق ص ٧٥ * * المرجع السابق ص ١٦١

انحدرت في عهد اخناتون الى طغمة من السحرة باعة الرقى ،الى طغمة تنشر الفساد السياسي والاخلاقي وتاكل المال الحرام . ويقول فيهم اخناتون :

" ان اقوال الكهنة لاشد اثما من كل ماسمعت، وهي اشد اثما مما سمعه الملك امنحوتب الثالث ( ابو اخناتون ) " *

ويقول احد علماء الآثار المصرية :

" كان في وسع الكاهن ان يمد الموتى في كل موقف من المواقف الخارة برقية قوية ..وهكذا فوجئنا بانقطاع اسباب التدرج في نمو المبادئ الاخلاقية التي نستطيع تبينها في الشرق القديم او على الاقل بوقف هذا النمو الى حين . ويرجع هذا الى الاساليب البغيضة التي نستطيع تبينها في الشرق القديم او على الاقل بوقف هذا النمو الى حين . ويرجع هذا الى الاساليب البغيضة التي لجأت اليها طائفة فاسدة من الكهنة حريصة كل الحرص على الكسب من اهون سبيل " * *.

يضاف الى هذا : ان طبقة الكهنة بما تتصف به دوما ( لاسيما في ايام الانحطاط والتخلف ) من تعصب اعمى ميالة الى العمل على عزل مجتمعها عن المجتمعات الاخرى ، وهذا ما يلحق ابلغ الاضرار بسير التجارة . وفي تلك الفترة ( فترة ما بين منتصف القرن الرابع عشر واواخر القرن الثالث عشر ) استمرت الامبراطورية البابلية في التردى والانحسار . وقامت في هذه الظروف دعوة اخناتون التوحيدية . فصدرت الاوامر باغلاق معابد الوثنية ومطاردة كهنتها ،ودعى الى عبادة اله واحد : آتون ، الاله الذى قيلت فيه الترانيم وقصائد التمجيد ،وقيل انه رب الامم وخالق كل شيء :

" .. الا ماأكثر اعمالك الخافية علينا ،

---

* المرجع السابق * * ذات المرجع

ايها الاله الاوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه ٠

يا من خلقت الارض كما يهوى قلبك ،

حين كنت وحيداً :

الناس والانعام كبيرها وصغيرها ،

وكل ما على الارض من دابة ،

وكل ما يمشي على قدمين ،

وكل ما هو في العلا ،

ويطير بجناحيه ،

والبلاد الاجنبية من سورية الى كوش ٠٠ وارض مصر ،

انك تضع كل انسان في موضعه

وتمدهم بحاجاتهم ٠٠ " *

كانت ديانة اخناتون التوحيدية تعبر بصدق وقوة عن طموح المستضعفين في الارض الى الحرية والمساواة ٠ ونحن لا نعلم مدى دعم طبقة التجار ( صاحبة اكبر مصلحة في التقدم في ذلك العصر ) لهذه الدعوة ،ولا مقدار وشكل مساندة الطبقات المظلومة الطامحة الى الانعتاق لها ٠ الا ان هذه الدعوة تركت على ما يبدو العلاقات الاجتماعية على ماكانت عليه دون تغيير يذكر ،فلم تضرب الكهنة في احد اهم اسباب قوتهم وسيطرتهم فابقت لهم ثرواتهم الطائلة ،فانهارت لذلك بموت راعيها اخناتون ،وانهارت معها امبراطورية الاسرة الثامنة عشرة ٠ الا انها مع ذلك تركت آثارا لا تمحى في ذاكرة الاجيال الطامحة الى التقدم نحو علاقات انسانية افضل ،وفي نفوس المظلومين والمستضعفين الطامحين الى الخلاص من العبودية ٠

---

* المرجع السابق ص١٦٩ - ١٧٥

٦ - اصل الشعب اليهودي ( العبرانيون ) : ان من المفيد ومن اول واجباتنا ان نبحث عن الاصل الاولية لهذا العدو الذي يهدد كياننا بعد ان سلب قارا من اهم اقطارنا العربية ،ثم اضاف الى هذا القطر اراضي عربية اخرى تفوقه بمساحتها . ولقد سبق ورأينا ان الامة تتميز من غيرها من الامم بمنابعها وروافدها التاريخية وبدورها التاريخي في بناء الجملة العالمية للمجتمعات الانسانية . فلننظر اذن على ضوء هاتين الميزتين الى نشوء الاقوام العبرانية:

اولا : سنرى فيما يلي من البحث بشيء من التفصيل العملية التاريخية التي تم بها تكون الاقوام العبرانية . الا انه بالامكان ان نشير هنا الى ان الغالبية في كل امة ( سوادها ) تشترك بصفات عامة تجعل منها وحدة انسانية بصب تفتيتها . الا انه من الثابت عدم وجود امة صافية العرق والجنس ،او خالية من الاقليات على اختلاف انواعها : الدينية والمذهبية والجنسية الخ .. الاقليات التي لابد من تكونها بنتيجة التفاعلات التاريخية التي تدخل فيها الامة اثناء نشوئها وتطورها بين مجتمعات الجملة الانسانية . اي اننا نجد باختصار ان الامة تقوم على العموم على غالبية موحدة بصفات مميزة الى جانب عدد من الاقليات المتكونة تاريخيا والمرتبطة عضويا بالغالبية المذكورة . فما هي ( على هذا الاساس ) قيمة دعوى « الشعب المختار » المنزه عن اختلاط الاجناس ؟ في الواقع اننا عندما ننظر الى الاقوام اليهودية نجد ان « معطيات الانتربولوجيا تظهر ( خلافا للراي الشائع ) بانه لايوجد جنس يهودي ،وان مقاييس علم الاجناس البشرية التي انطبقت على المجموعات اليهودية في بقاع كثيرة

من العالم تشير الى انهم يختلفون اختلافا عظيما من مجموعة الى اخرى في الخصائص الفيزيائية : القامة ، الوزن ،لون البشرة ،لون الشعر والعينين ،عظام الجمجمة ،عظام الوجه وفئات الدم . واليهود في فترة التوراة كانوا جماعات مختلفة الاعراق ،كما يشار الى ذلك في التوراة من حين الى آخر،وكما يظهر من الصور المعاصرة للعبرانيين على شواهد وآثار المصريين والآشوريين وغيرهم ..." * .

ونجد في التوراة الاشارات التالية الى موضوعنا الراهن ،في تثنية الاشتراع ٢٦ / ٥ :

" ثم تجيء وتقول بين يدى الرب الهك ان ابي كان آراميا تائها .."

وفي حزقيال ١٦ /٣ :

" وقل هكذا قال السيد الرب لاورشليم : معدنك ومولدك من ارض الكنعانيين وابوك آمورى وامك حثية "

وفي سفر الملوك الاول ١٦ / ١٢ :

" فارسل واتى به وكان اشقر ( يعني داوود : من عندنا ) .."

وفي نشيد الانشاد لسليمان ١ / ٥٢٤ :

" انا سوداء لكن جميلة يا بنات اورشليم كاخبية قيدار ، كسرادق سليمان . لا تلتفتن الى كوني سوداء ،فان الشمس قد لوحتني . قد غضب علي بنو امي فجعلوني ناطورة الكروم ،والكرم الذى لي لم انطره .."

فنرى اذن ان العبرانيين خليط من الاقوام والاجناس لا تتوفر فيه

---

* الموسوعة بريتانيكا ،مجلد ١٢ ص ١٠٣٤ ،١٠٣٥

(كما تتوفر في الامم كاملة التكوين) غالبية لها صفات مميزة يرتبط بها عدد من الاقليات، بل ان الاقوام اليهودية بمجموعها مزيج من الاقليات. فبعد انهيار مملكتي اسرائيل واليهودية وانتشار اليهود في شتى اقطار الارض عمل هؤلاء على نشر دينهم في الامكنة التي حلوا فيها. فازداد تنوع خليطهم، ونحن "لانغالي انا قلنا ان عددا كبيرا من المسيحيين يجري في عروقه الدم العبراني اكثر من فريق كبير من اليهود المفاخرين بعنصريتهم اليهودية .. وقد قال علماء الجنس البشري في جامعة كولومبيا: ان اليهود هم شعب يعتنق الديانة اليهودية، وهو خليط من جميع الاجناس بما فيها الزنجي والمغولي .. "اما يهود اوربا فهم خليط من عدة سلالات مختلفة ايضا" * . ومن الاقوام غير السامية التي اعتنقت الديانة اليهودية ثم انتشرت في الارض: الخزر. فمملكة الخزر تهودت في القرن الثامن للميلاد ويعتبر اهلها من "اكبر الجماعات التي اعتنقت الديانة اليهودية خلال العصور المتعاقبة. وكانت رقعتها تمتد بين نهري الفولغا والدون وتمتد حتى شواطئ بحر الخزر والبحر الاسود. وقد عاشت قوية منتعشة مدة طويلة. وبعد اندثارها تشتت ابناؤها من القوقاز واوربا الشرقية الى مختلف الانحاء، وقسم كبير منهم هاجر الى العالم الجديد. وشعب الخزر .. خليط يعود باصله الى اواسط آسيا وشرقيها" **

"يعطي عصر المعارنة نقطة البداية لاى تقدير لفلسطين وتاريخ

---

* الفريد ليلنتال، ثمن اسرائيل ص ٢٣٠، ٢٣١. وقد وردت في كتاب بلادنا فلسطين للاستاذ مصطفى مراد الدباغ ج١ قا ص ٥٧٤

** بلادنا فلسطين الآنف الذكر ص ٥٧٤

اسرائيل . فالسجلات تكشف حالة من الفوضى في فلسطين ادى اليها ضعف مصر وغزو شعوب شمالي سورية ، وكانت فلسطين مقسمة الى بضعة امارات صغيرة محلية تمزقها الانقسامات الداخلية ومخططات القوى الخارجية . وفي تلك الاثناء ظهر على المسرح الفلسطيني جماعة تدعى خابيرو . وكثير من الدارسين يقرن هذا الاسم بالعبرانيين ويرجحه . ولقد وجد الاسم خابيرو في لوحات مابين النهرين ، وهو يدل على اجانب غازين ، وهو بهذا المعنى يستعمل في لوحات تل العمارنة ( التي كانت مكتوبة من قبل الامراء الولاة او حكام فلسطين الى الملك المصرى اخناتون ) . وهي تصف قبائل جاءت الى البلاد من الجهة الشرقية . وانا كان اصل كلمة العبرانيين من خابيرو صحيحا وهو الغالب فانه يمكن الاستنتاج بان العبارة تدل على تلك المجموعة من القبائل التي غزت وانتصرت على كنعان ،اى تدل على العبرانيين "* . و " هذه القبائل ( الخابيرو ) كانت ذات اجناس متعددة . ولسبب ما لم تكن تملك حقوقا مدنية تامة في اى مكان . وكثير من الدارسين يعتبرهم العبرانيين القبائل الذين اصبح فرع او تجمع منهم يدعى بالاسرائيليين . ورسائل تل العمارنة تحتوى على شواهد كثيرة لغارات النهب والسلب التي كانوا يقومون بها "**

ثانيا : قلنا ان التوحيد كان التعبير العملي لطموح المستضعفين الى المساواة فالدعوة الموسوية كانت اسهاما كبيرا في نشر وتوايد افكار التحرر من الوثنية ،وبالتالي اسهاما في التقدم نحو

---

* بريتانيكا مجلد ١٢ ص ١٠٥٥

** بريتانيكا مجلد ٤ ص ٧٢٧

بناء مجتمعات لبقية يعترف فيها بتساوى البشر بانسانيتهم وان لم يتساووا من حيث انتمائهم الطبقي : ففي كل تاليه للانسان وتساوى الناس امام لانهائية الاله الواحد . لكن قادة العبرانيين وكهنتهم فشلوا في تعميم دعوة التوحيد هذه ونشرها في جملة المجتمعات الانسانية في تلك الايام لصالح التقدم الاجتماعي في كل تلك الجملة . فهم عندما حاولوا قيادة جماعاتهم في عملية تكوينهم في امة متميزة لم يقوموا بدور ايجابي في بناء جملة المجتمعات المذكورة مما ادى الى انقطاع الطريق امام عملية التكون المذكورة بدلا من ان يعملوا مثلا على تحرير الطبقات صاحبة المصلحة بالتقدم في الجملة الانسانية قاموا باعمال القتل والنهب ضد كل الناس بدون تمييز : "وكان الكهنة انفسهم - اذا جاز لنا ان نحكم عليهم من خلالهم التي ينطقون بها يهوه ( الله : من عندنا ) - مولعين بالحروب ولعهم بالمواعظ .. وكانت العادة المتبعة ان تدمر المدن التي يستولون عليها في حروبهم ،وان تقلع بحد السيف رقاب جميع الذكور من سكانها ، وان تتلف الارض حتى لاتصلح للزرع الا بعد زمن طويل .." *

لقد اقام العبرانيون حكمهم في فلسطين في طور نشوء وتكون جملة المجتمعات الانسانية في منطقة البحر الابيض المتوسط . ولكن فترة حكمهم كانت قصيرة جدا بالنسبة الى العهود الطويلة التي استمر فيها الطور المذكور . وكانوا قليلة تاريخهم في فلسطين محاطين بالكره من كل اقوام المنطقة لكثرة وفظاعة ما ارتكبوه من جرائم وحشية ضد هذه الاقوام : "كانت حياتهم تشبه حالة رجل يصر على الاقامة وسط طريق مزدحم ،فتدوسه القوافل والمعاطبات باستمرار ..

---

* قصة الحضارة ص ٣٧٦ ، ٣٧٧

ومن الاول الى الآخر لم تكن مملكتهم سوى حادث الارض في تاريخ مصر وسورية وآشور وفنيقية ،ذلك التاريخ الذى هو اكبر واعظم من تاريخهم "* . وقد اقاموا منذ ظهورهم في المنطقة ،منذ عهد القضاة ( عهد بداوتهم ) ،حكم قانون الطبيعة الثاني وهو : " اكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حيا ..." ** . ويصف غوستاف لوبون هذا العصر ، عصر ابتداء ظهورهم على مسرح التاريخ بقوله :

" كان بنو اسرائيل اقل من امة (اى انهم لم يكونوا امة ابدا : من عندنا ) ،كانوا اخلاطا من عصابات جامحة ،كانوا مجموعة غير منسجمة من قبائل سامية صغيرة اناقة ، بدوية ، تقوم حياتها على الغزو والفتح والجدب وانتهاب القرى الصغيرة ،حيث تقضي عيشا رغدا دفعة واحدة في بضعة ايام ، فاذا امضت هذه الايام القليلة عادت الى حياة التيه والبؤس" **

لم يحكم العبرانيون فلسطين كلها طيلة وجودهم فيها . ففي عهد داوود ،اعظم ملوكهم والمؤسس الحقيقي لمملكتهم فيها ،كان الساحل الفلسطيني من شمالي يافا الى جنوبي غزة تابعا لمصر . وقد عادت دولتهم الى الرضوخ للسيادة المصرية في عهد سليمان بن داوود ابهى ملوكهم . يقول برستيد في" تاريخ مصر الى الفتح الفارسي " :

" والظاهر ان سليمان الحكيم كان واليا تحت النفوذ المصرى هناك . ويرجح انه تزوج بكريمة فرعون الذى اوسع له الاقاليم بضم

---

* قصة الحضارة المذكور ص ٣٢٧

** اليهود في تاريخ الحضارات الاولى ص ٣٢ . وقد وردت العبارة في كتاب بلادنا فلسطين المار ذكره .

مدينة جازر المهمة اليه "* .

ان حكم اليهود في فلسطين لم يخرج ابدا عن دوائر نفوذ وسلطان الاقوياء في منطقة البحر الابيض المتوسط . فقد خضع العبرانيون للأموريين بعد المصريين ،ثم للبابليين الذين خربوا القدس ونفوا اعدادا كبيرة من اليهود الى بابل . كما "استعملهم قورش ( تماما كما تستعملهم حاليا الامبريالية الاميركية ضد الوطن العربي باجمعه : من عندنا ) كجواسيس ماهرين في "مراقبة اعدائه ،وكعنصر يبذر بذور التفرقة بين خصومه ليكونوا بذلك عونا له في فتح مصر وفي تثبيت اقدامه في فلسطين "** . وقد اتى اليونان ثم الرومان الى فلسطين . وكانت دول اليهود الطارئة في تاريخ المنطقة ( حسب تعبير المؤرخ ولز المذكور اعلاه ) قد دالت منذ عدد من القرون ، فلم يبق منها في العهدين المذكورين ، اليوناني والروماني ،الا شبه مملكة تابعة لا تتمتع الا باستقلال داخلي ضيق . وقد بلغت الادارة في هذه الدويلة التابعة اقصى حدود التفسخ والانهيار قبيل ظهور المسيحية . فملكها انتيباس مثلا تزوج هيروديا ابنة اخيه . وعندما انتقده يوحنا المعمدان ( النبي يحيى ) امر بسجنه ،ثم قاع راسه ارضاء لابنتها سالومي التي كانت قد اغوته بدورها كما اغوته امها من قبل . اما طبقة الكهنة فكانت تشكل عصابة تمارس اللصوصية على اوسع نطاق . فالهيكل اصبح سوقا للربا ودارا للمقامرة . فنقرأ مثلا في الفصل الحادي والعشرين من انجيل متى ما يلي :

---

* وردت في كتاب بلادنا فلسطين ص ٥٦٢

** بلادنا فلسطين المذكور ص ٥٨٥

" ودخل يسوع هيكل الله واخرج جميع الذين يبيعون ويشترون في الهيكل ، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام . وقال لهم: مكتوب بيتي بيت صلاة يدعى ، وانتم جعلتموه مغارة لصوص " .

وفي الفصل الثالث والعشرين :

" الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المرائون فانكم تاكلون بيوت الارامل بعلة تطويل صلواتكم ومن اجل هذا ستنالكم دينونة اعظم .. ايها القادة العميان الذين يغصون من البعوضة ويبلعون الجمل .. كذلك انتم يرى الناس ظاهركم مثل الصديقين وانتم من داخل ممتلئون رياء واثما " .

وقد قامت المسيحية في مثل هذه الظروف المحلية ،وفي الظروف العالمية التي كانت حينذاك تتميز : باندلاع ثورة سبارتكوس في ايطاليا ( عام ٧١ قبل الميلاد ) ،وبمصرع يول سيزار واندلاع الحرب الاهلية بين القادة الرومان ( عام ٤٤ ق.م ) واحتلال الفرس لسورية الطبيعية ( ٤٠ - ٣٨ ق.م ) ،ثم طردهم منها على يد مارك انطوان ،وتجدد الحرب الاهلية بين اعضاء الترويومفيرا وسقوط مارك انطوان ( ٣١ ق.م ) ، وسقوط الجمهورية الرومانية وتولي اغسطس عرش الامبراطورية ( ٢٧ق.م ). والمسيحية كثورة توحيد كبرى في جوهرها ( ونزعت النظام العبودي من اساساته في منطقة البحر الابيض المتوسط ) : بدأت كانتفاضة ضد اشد انظمة جملة المجتمعات الانسانية العبودية تفسخا في تلك الازمان ،بدأت ضد كهنة اليهود . وقد حرض هؤلاء وثنيي الرومان ضدها وتحالفوا معهم لتصفية عيسى عليه السلام جسديا . وقد كرروا ذات الموقف ضد رسل المسيحية في شتى اصقاع العالم ،وعلى الاخص في

روما . وعادوا لتكرار هذا الموقف تجاه الثورة الاسلامية الكبرى، فتحالفوا مع الوثنيين للقضاء على الدعوة المحمدية :

" لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود " ( سورة المائدة ) اى ان كهنتهم وقادتهم في كل الحالات خانوا الثورةالموسوية ضد العبودية خانوا عقيدة التوحيد التي يعتقدون بها بالاسم وناصروا بالفعل الرجعية الوثنية ضد دعوتي التوحيد المسيحية والاسلامية ( ناصروا انظمة العبودية ) ،تماما كما يفعل اليوم الصهاينة عندما يناصرون ويتحالفون مع كل امبريالية ورجعية ، سيما منها اعتاها : الامبريالية الاميركية ضد كل تحرر في العالم .

ترك اليهود فلسطين وهاجروا الى مختلف انحاء العالم في الوقت الذى كانت فيه جملة المجتمعات الانسانية تتكون في منطقة البحر الابيض المتوسط ،فتخلوا بذلك عن دورهم في المساهمة في بناء هذه الجملة . ففلسطين كانت قد خلت منهم عمليا في نهاية الدور العبودى ( عند قيام الثورة الاسلامية الكبرى ،وسقوط الحواجز بين الجمل الانسانية الثلاث في البحر المتوسط والهند والصين ) . يقول كلرمون جانو :

" لما دخل المسلمون ارض اليهودية لم يجدوا يهودا . لان حروب فاسبازيان وتيتوس وتراجان وهدريان واضطهادات ملوك النصرانية لم تترك حجرا على حجر من اليهودية السياسية والوثنية . بل امعنوا في القضاء عليها ونروا رمادها في الرياح الاربع ( اى انهم خرجوا منها تماما كما دخلوها : من عندنا ) ففقدت فلسطين جميع العقائد اليهودية ، ما عدا الذين تراهم هيلا استثناء هم من الدرّاء

على فلسـاين مؤخرا نزلوها بعد ان بادوا منها مدة خمسة عشر قرنا " * .

اننا نرى بوضوح انهم كانوا ابدا ،منذ ظهورهم على مسرح التاريخ ، وما يزالون حتى الآن ،من الوراء على فلسـاين . وهم اليوم ياتون الى هذا القطر بقوة حراب الامبرياليين (سيما منهم الاميركان) ليقوموا بذات الدور الذى كان قورش قد عهد به الى اسلافهم : انهم ياتون ليكونوا مخفر الامبريالية في منطقة الكنوز البترولية، في الوطن العربي . فنجد اذن في كل ما مر معنا من امور ان المبرانيين قد فقدوا منذ وقت طويل دورهم الايجابي في بناء الجملة الانسانية العالمية فاصبحوا في النتيجة (كما كانوا على الدوام) عائقا امام تكامل الجملة المذكورة . وبالتالي يتضح تماما بعدهم عن تشكيل امة بين الامم . ان الصهيونية العالمية ،بما تجمعه من يهود في اسرائيل ،وبالايديولوجيات التي تنشرها بين اتباعها ، وبتنظيماتها الرجعية ،لاتتناول مع الامبريالية بناء امة (ولو على عجل في هذا الوقت المتاخر من تقدم جملة المجتمعات الانسانية نحو التكامل ،من تقدم امتها نحو آخر مرحلة من مراحل تكونها) ،وانما تحاول خرق نقيض الامة (سلب الامة) في سوق الصراع العالمي المعاصر.

ان ما مر معنا لاينفي ابدا (بطبيعة الحال) وجود جماهير يهودية بريئة تعيش هنا وهناك في شتى انحاء العالم ،كما كان يوجد على الدوام . ولا بد من التمييز بين الرجعية اليهودية وبين جماهيرها المستغلة . ولننظر فيما يلي الى العملية التاريخية لتركيب الاقوام العبرانية :

ا - طروف الدعوة الموسوية : يقول البعض ان موسى هو ابن

---

* بلادنا فلسـاين المذكور ص ٦٦٤

الاميرة حتشبسوت( التي اصبحت ملكة فيما بعد ) ،وقد ولدته عام ١٥٢٧ ق٠م ،فتكون دعوته قد قامت في النصف الاول من القرن الخامس عشر قبل الميلاد ٠ وهنالك قول بانه كان كاهنا مصريا خرج للتبشير بين اليهود المجذومين ،وكان يعلمهم النظافة على نسق القواعد المتبعة عند الكهنة المصريين ٠ ويقول آخرون بالاستناد الى التوراة ان الخروج من مصر كان عام ١٢٢٠ ق٠م٠ الا ان هنالك اشارة الى اسرائيل على لوحة اقامها الفرعون ميرنبتاح حوالي عام ١٢٢٥ :

" لقد غلب الملوك وقالوا سلاما !

وهدئت ارض الحثيين ،

وانتهبت كنعان ،وحلت بها كل الشرور ،

وغربت اسرائيل ،ولم يعد لابنائها وجود ،

واضحت فلسطين ارملة لمصر ٠٠" *

وهذا يدل بوضوح على ان الخروج كان قبل عام ١٢٢٠ ق٠م٠ الا انه من جهة اخرى "لم يرد ذكر لموسى على لسان عاموس او اشعياء وهما اللذان سبقت نبوءتهما تاليف اسفار موسى الخمسة بنحو قرن من الزمان " * * ٠ والخلاصة نجد ان الكثير من الغموض يكتنف تاريخ الدعوة الموسوية ،وصاحب هذه الدعوة ٠ لكنه بامكاننا ان نؤكد الامور التالية بناء على الشواهد التاريخية التي ظهرت في آثار الاقدمين :

اولا : كانت اضرابات الصناع معروفة في جملة المجتمعات العبودية التي كانت انظمتها تذهب الى ابعد حدود القسوة في معاملة الكادحين من العبيد وغير العبيد ٠ فمثلا "حدث مرة ان ان تاخر صرف الاجور

---

* قصة الحضارة الآنف الذكر ص ٣٢٤ * * قصة الحضارة ص ٣٢٦

للعمال ( في مصر ) زمنا طويلا . فحاصروا رئيسهم وانذروه بقولهم له: لقد ساقنا الى هذا المكان الجوع والعطش وليست لنا ثياب وليس عندنا زيت وطعام ، فاكتب الى سيدنا الملك في هذا الامر ، واكتب الى الحاكم ( حاكم المقاطعة ) الذى يشرف على شؤوننا حتى يعطينا ما نقتات به . وتروى احدى القصص اليونانية المتواترة اخبار فتنة صماء اندلع لهيبها في مصر واستولى فيها العبيد على احدى المديريات ، وظلت في ايديهم زمنا طويلا كانت نتيجته ان الزمن الذى يجيز كل شيء ، اقر امتلاكهم اياها "* .

وقد عرفت ايضا انواع اخرى من العصيان والثورات . فالعبيد والاسرى والمسخرون ، الذين كانوا يساقون بالسياط للقيام باشق الاعمال : من حفر للاقنية ، وتعدين ، وبناء للصروح الضخمة وغيره ، بادوات بسيطة ، فيتساقطون في هذا العذاب الذى لا نهاية له صرعى من الجوع والتعب ، هؤلاء المعذبون كانوا عندما تتاح لهم الفرصة ، يفرون فرادى وجماعات ، كبيرة وصغيرة ، الى امكنة ملائمة ( ان امكن ) ليبدأوا حياة جديدة . بل ان الاحرار من ابناء الشعب كانوا ( وما يزالون ) يفرون من شدة الظلم ليلجأوا الى مأمن . فالفرار كان ظاهرة كثيرة التردد ومتسعة في جملة المجتمعات العبودية . ذلك لانه مهما بلغت قسوة حياة الهارب فانها ما كانت لتبلغ حدا يقارن بالعذاب الاليم في العبودية . الا ان الفرار الفردى كان قليل النجاح : فالذى يؤوى عبدا آبقا او يسهل فراره او يتكتم عليه كان يسام سوء العذاب ويعاقب بالعقوبات الشديدة التي قد

---

* قصة الحضارة ص ٨٧

تصل الى الاعدام ،اما الآبق فكان يقتل شر قتلة • فكان لابد للفرار لكي ينجح ،من ان يكون جماعيا ومنظما ،ان يكون فرارا بالقوة ،فرارا يتغلب على ذلك النظام الصارم • وكثيرا ما كان العبيد والمظلومون يهربون بجماعات منظمة الى الجبال والغابات والصحارى وغيره من الاماكن الوعرة ،حيث يقومون من هذه القواعد بتنظيم غارات على سبل القوافل والمسافرين ،او حيث يختبئون الى ان تتغير الاحوال فيعودون الى ذويهم • فقصة اهل الكهف المعروفة تصور لنا فتية احرارا فروا من الظالم ،تماما كما يحدث في كل عصر • وثورة سبارتاكوس الشهيرة تبين لنا انه في الظروف التي كثر فيها الاباء في جملة المجتمعات العبودية واتيحت لهؤلاء فرصة التنظيم ،في حدود فكرة وهدف واضحين ، كانت عملية الفرار بالقوة تاخذ ابعادا ضخمة تزعزع الجملة العبودية العالمية من اساسها • فمن المعلوم ان حركة سبارتاكوس وقعت في القرن الاول قبل الميلاد ضد الرومان ،حيث قام اكثر من مائة الف عبد ( من مختلف الاجناس التي استعبدها الرومان واتوا بابنائها الى روما ليعملوا هناك) بثورة كبيرة تهدف الى الانعتاق من العبودية بالخروج من ايطاليا بالقوة الى بقعة مناسبة من بقاع الامبراطورية • وما استطاعت روما حينذاك اخماد هذه الحركة الضخمة الا بعد سلسلة من المعارك دامت اكثر من سنتين • وقد صعد ماركوس كراسوس ( القائد الروماني في هذه الحرب ) الى قمة السلطة فاصبح احد اعضاء التريومفيرا ( الثلاثة ) الى جانب قيصر وبومبي عقب انتصاره على سبارتاكوس •

لقد كان هنالك اسلوب آخر للتصدى للظلم وفساد الوثنية المتفسخة في جملة المجتمعات العبودية ، وهو الهجرة المنظمة الى مكان مناسب

يجد فيه الثائرون ما يحتاجونه من حماية وعون ليدللقوا بنجاح نحو اهدافهم . والدعوة الاسلامية تعاينا احسن مثال على هذا العمل الثوري لمقاومة الرجعية الوثنية . فمن المعلوم انه عندما اشتد اذى القرشيين للمسلمين فكر نبينا عليه السلام في بادئ الامر توجيه الهجرة الى الطائف، فذهب بنفسه اليها ليحاول استمالة انصار له من اهلها فصد بغلاظة وقسوة . ثم جرت هجرة جزئية الى الحبشة، او بالاحرى كانت "استطلاعا" لدراسة امكانات الاستفادة من هذا البلد لدعم الدعوة الاسلامية . الا انه على الرغم من الاستقبال الودي للوفد الاسلامي هناك، روى ان فائدة البلد البلد المذكور كمهجر وقاعدة للدعوة محدودة تماما : لبعده وصعوبة الوصول اليه (سيما من قبل الفقراء والمستضعفين من المسلمين) وصعوبة الاتصال منه بالجزيرة العربية، ان الدعوة كانت تستهدف العرب قبل غيرهم من اقوام جملة المجتمعات العبودية في ذلك الوقت. وفي اثناء ذلك كانت تجرى اتصالات و"جس نبض" في اوساط يثرب. وقد تكللت تلك المساعي بالنجاح التام، ودعي المطهدون والملاحقون من المسلمين بالتوجه اليها . ثم هاجر النبي عليه السلام بذاته عندما تآمر وثنيو قريش على قتله . وكان اختيار المدينة مهجرا وقاعدة للدعوة الاسلامية عملا تاريخيا حاسما ارتبط به احداث خطيرة غيرت العالم حينذاك، واحداث نقلت جملة المجتمعات من الطور العبودي الى طور الحرفة الحرة . فيثرب كانت تتمتع بموقع ممتاز وكان لها علاقات متشعبة مع مختلف القرى العربية حينذاك. فهي على طريق القوافل الذاهبة من الحجاز الى سورية والعراق، فيمكن بالتالي احكام الحصار منها على تجار

قريش بقطع الطريق الآنف الذكر امام قوافلهم • والاوس والخزرج • انصار النبي عليه السلام •قحطانيون كانت لهم قرابات وعلاقات ممتازة مع اليمن والفساسنة والمناذرة • وقد كان تدفق المهاجرين الى المدينة من اهم الامور التي عايقت المصريين حتى ان هؤلاء جعلوا من هذا الامر الموضوع الرئيسي في صلح الحديبية • ثم ان الجيوش التي غيرت نظام العالم فنقلت جملة المجتمعات الانسانية من طور العبودية الى طور الحرفة الحرة ( بعد ان هدمت الحواجز بين مختلف مناطق الارض ) انطلقت من تلك القاعدة •

ثانيا : ان الانقلابات والثورات ما كانت اذن غريبة عن مجتمعات جملة العبودية •وخاصة عن مصر مركز هذه الجملة لفترة طويلة من الزمن • وتبين الشواهد التاريخية ان النهوة الموسوية ظهرت في فترة انقلابات واسعة وقعت في هذا القطر • وفي ذلك العهد ما كان التناقض موجودا فقط بين السادة وبين العبيد والكادحين من الاحرار، وانما كان ايضا بين مختلف فئات السادة : بين التجار والكهنة •وبين الكهنة والامراء الخ •• و " قام النزاع في مصر •• بين الدولة والكنيسة ( بين الامراء والكهنة : من عندنا ) فقد كانت اسلاب كل حرب والجزء الاكبر من خراج البلاد ••تدفق •• في " خزائن الهياكل والكهنة •• وجاع الشعب واشتد جوعه يوما بعد يوم لكي يتخم الآلهة " *•

وبالتدقيق في تاريخ مصر ( من انهيار امبراطورية الهكسوس عام ١٥٨٠ ق•م• حتى عهد مير بنتاح عام ١٢٢٤ ق•م) نجد ان الحروب الامبريالية للاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة لم تنقطع تقريبا • فالانتصارات في هذه الحروب ( وكانت كثيرة ) كانت تجلب الغنائم الوافرة من مختلف

---

* قصة الحضارة الآنف الذكر ص ١٨٢

المحصولات الزراعية والمنسوجات الحرفية والمعادن المصنوعة والذهب والفضة وغيره ،بالاضافة الى الرقيق العبيد . ولقد كانت هذه الانتصارات كما هو واضح وطبيعي ، تجلب النفع الفاحش للامراء والكهنة والمحاربين ، الا انها من جهة اخرى كانت:

اولا : تخرب البلاد المهزومة التي كانت تتم بعد هزيمتها الى الامبراطورية ،وكانت تستنزف مواردها بالذهب والجزيات ،

ثانيا : تعطل الانتاج في مصر ذاتها ،وهذا نتيجة لذلك السيل من «الارزاق المجانية » الذى كان ينصب على هذا القار من مختلف انحاء الامبراطورية ،فكان « يخنق » السوق هناك ويخفض الاسعار ويعطل الايدى العاملة التي كان عددها مع ذلك يزداد بورود المزيد من العبيد المزاحمين لها : ما كانت موجودة حينذاك وسائل الراسمالية التي نعرفها اليوم والتي بامكانها ان «تبتلع» فيضانات المواد الاولية الآتية من البلاد المقهورة في الوقت الذى يمكن لوسائل نقلها ان توزع مختلف المنتجات بسهولة نسبية بحيث تمنع اختناق السوق الحاصل من فيض المنتجات الواردة بتوزيع هذه المنتجات على اسواق اخرى اقل اكتظاظا من الاولى ،

ثالثا : كانت السبل والعلاقات التجارية تنقطع بين مصر والاقطار الاخرى طيلة العمليات في تلك الحروب المستمرة ،

رابعا : كانت الويلات والكوارث تنزل حيث كانت تمر الجيوش في هذا الاتجاه او ذاك .

اما في الحالات التي كانت تخسر فيها مصر حروبها ،فان نتائج

تلك الخسائر كانت، بطبيعة الحال، تنزل بالمجتمع المصري، وخاصة منه العبيد والاحرار المسخرين للعمل لدى الاسياد والكهنة : فما كان يضيع من الثروات في الحروب كان يعوض بمزيد من استنزاف العمل من عضلات الكادحين وبمزيد من تجويع هؤلاء الذين ما كان لينقصهم الشقاء والجوع والمرض في كل الاحوال. ثم ان التكاليف الباهظة في الارواح والاموال لكل حرب ظافرة او خاسرة، تترك دوما آثارا مدمرة في مجتمع كل من يشترك فيها ( وذلك بدون اى تمييز طبقي ).

لقد ظهرت اذن الديانة الموسوية في تلك الظروف الاجتماعية في المذاقة. وانه اذا كنا لم نحصل حتى الآن على ما يؤيد وقوع قصة الخروج من مصر بين الآثار التي عثرنا عليها فان مرد ذلك هو : ان هذا الحادث كان من اضخم الثورات التي قام بها العبيد والمسخرون الاحرار وايدها كل من كان له مصلحة بالتغيير في المجتمع، وكانوا كثر. وما كان هؤلاء الثائرون يتحكمون بالكتابات الرسمية التي كانت تسجل على اوراق البردى والاوابد واللوحات، كما انه ما كان "رسميو" تلك الايام ( المغرمون بتسجيل انتصاراتهم ومآثرهم ) ليسجلوا اخبار تلك الثورة ضدهم : "فمن اغرب الاشياء ان حضارة كانت تستغل العمال هذا الاستغلال القاسي لم تعرف او تسجل الا عددا ضئيلا من الثورات" *. ثم ان انتقال اخبار هذا الحادث بالتواتر من جيل الى جيل على مدى عدد من القرون حتى تم تسجيلها عند كتابة التوراة في عهد يوشيا ملك يهوذا ( ٦٣٨ - ٦٠٨ ق.م ) يدل

---

* قصة الحضارة المار ذكره ص ٨٧

يوضح على ان الحادث المذكور ما كان تافها ولا عابرا ،وذلك مهما اكتنف التسجيل المذكور من الاقوال الغريبة وخوارق العادات والانحرافات التي دسها الكهنة لخدمة اغراضهم الطبقية وخدمة مخططاتهم ضد الشعوب الاخرى. وما كان الحادث ابن ساعته ولا فريدا من نوعه ، بل كان نتيجة صراع سياسي طويل مرير بين الطبقات الرجعية من جهة والطبقات التقدمية مدعومة بالكادحين من جهة اخرى. ولعل اول هذا الاضطراب السياسي ،وتردده حينذاك في المجتمع المصرى الفينة بعد الفينة ( على مدى قرنين او ثلاثة ) هو السبب في الغموض الذى اكتنف تحديد وقوع حادث الخروج من مصر.

قلنا ان الاضطرابات الطبقية لم تكن غريبة عن ذلك المجتمع في مصر ،كما ان ديانة اخرى موحدة ( غير الديانة الموسوية ) ظهرت في تلك الحقبة من الزمن ،وهي ديانة اخناتون. يقول ول ديورانت ( في قصة الحضارة الآنف الذكر في حاشية الصفحة ١٧٥) معلقا على تلك القصيدة التي ذكرنا بعض فقراتها فيما سبق من البحث ،وهي دعاء موجه الى آتون اله الفرعون الموحد اخناتون :

"ان ما بين هذه القصيدة وبين المزمور الرابع بعد المائة من تشابه يغفل عنه الناس لا يترك مجالا للشك فيما كان لمصر من اثر في الشاعر العبرى".

وتنسب المزامير ،كما هو معلوم ، الى النبي داوود ،او انها قيلت في عصره او حول عصره على كل حال. ونتساءل عن الكيفية التي وصل بها تاثير الشعر الاخناتوني الى الشاعر العبراني خلال اكثر من ثلاثة قرون. اذ من المعلوم انه بعد موت اخناتون فعل

الكهنة المصريون كل ما بوسعهم لازالة كل اثر لديانته . والشاعر المبراني فناظم المزمور الآنف الذكر ،ما كان اذن ليستطيع الاطلاع على ادب التوحيد المصري ( الذى لم يحن رسميا الا فترة حكم اخناتون ) من خلال اى نوع من انواع الكتابة . الا ان هنالك امرا لا يستطيع الكهنة محوه وازالته ،وهو الادب الشعبي ،ادب المظلومين العبيد والمسخرين الذى ترويه الاجيال : كل جيل عن سلفه . فلا بد اذن من ان يكون ادب التوحيد المصرى قد رافق اولئك الذين خرجوا من مصر ورافق اجيالهم حتى عهد المزامير . ثم ان الاضطرابات السياسية الدائمة في مصر كانت دائمة في ذلك العهد ( الذى كان الدور العبودى ينهار فيه ليقوم دور عبودى آخر ولكنه اعلى ) . وكثيرا ما كانت تلك الاضطرابات تتفجر بشدة . وكان من جملتها ومن اشدها تلك التي حدثت بدعوة موسى . وان الوصف الذى نقراه في سفر الخروج من التوراة لازمة اجتماعية حادة وقعت في مصر لم يكن ذكريات عن حادث واحد فقط هو حادث خروج موسى بجماعته ،وانما كان في الواقع ذكريات الاجيال بعد عدد من القرون لكل تلك المظالم التي كان يقوم بها ذلك الشعب ردا على تلك المظالم ،والتي كثيرا ما كانت تنتهي بهرب ( بخروج ) الثائرين ( بعضهم او كلهم ) من مصر الى مكان يامنون فيه من سلوة مضطهديهم . ولقد حمل الخارجون بقيادة موسى كل تلك الذكريات الثورية ،تماما كما حملوا معهم الادب الثورى لاخناتون عند كتابة التوراة باكبرها التي هي قصة الخروج بقيادة موسى عليه السلام .

ب- قيام الدعوة الموسوية : لننظر الى سفر الخروج من التوراة،

وخاصة منه الفصل الخامس. فعندما نجرد هذا السفر من الفيبيات نجد انه يصور بشكل مباشر حينا وبشكل رمزي حينا آخر صراعا حادا نشب بين جهاز يرأسه مستفك وبين عبيد ومسخرين . فالقصة تبدأ بمقابلة تقدم فيها "زعيما حركة" ، موسى وهارون ، "باحتجاج" الى الفرعون على سوء المعاملة التي يلقاها الشعب ، والبابا يمنح الكادحين ايام عالة يستريحون فيها ، ايام اعياد . لقد البابا بثلاثة ايام يذبح فيها الشعب للرب في البرية . فالعبد والمسخر في تلك الايام كان بالكاد يمنح وقتا للنوم، وما كان له وقت يعنى فيه بجسمه . اما ايام العمال واوقات الراحة فكانت غير معروفة لهذه الفئة من الناس. ويصف ديودور الصقلي المعدنين في مصر عام ٥٦ ق.م فيقول :

" .. واذ كان هؤلاء العمال عاجزين عن العناية باجسامهم، وليس لهم ثياب تستر عريهم ، فان كل من يرى هؤلاء البائسين المنكودي الحظ تاخذه الرحمة بهم لفرط شقائهم - ذلك لانه لايرى احدا يرحم المرضى والمشوهين والعجزة والضعاف من النساء، او يخفف العمل عنهم ، ولكن هؤلاء كلهم يلزمون بالدأب على العمل حتى تخور قواهم .." * .

وكان هذا في عام ٥٦ ق.م ، فكيف كان الحال في زمن يتقدم على هذا باكثر من اثني عشر قرنا .. يكفي من الشقاء مايصوره هذا الوصف ... ولا ريب في ان المبالغة الكبيرة في تقديس الراحة يوم السبت عند اليهود تعكس النقيض الذى كان يجرى في طور العبودية الذى

---

* قصة الحضارة ص ٨٥

قامت فيه دعوة موسى : الزام العبد والمسخر بالسياط بالدأب على العمل حتى انحلال قواه انحلالا تاما . فكان اذن مطلب تخفيف وتيرة العمل ومنح الكادحين يوم عطلة اسبوعية وايام اعياد يستريحون فيها رد الفعل المباشر للشعب الكادح على الوتيرة الوحشية للعمل : كان المطلب الشعبي الاول . كما كان الفرح بيوم العطلة ،بيوم الخلاص من العمل ( ولو موقتا لفترة الراحة ) يعادل نقيضه من حيث الشدة ، يعادل عذاب العمل المرير فيبلغ حد النعيم . وقد انتج استهتار السادة براحة الكادحين ( عندما كانوا يسومونهم سوء العذاب بالعمل ) تقديس الاخيرين يوم الراحة .

لننظر الى وصف تلك المقابلة التي تمت بين موسى واخيه هارون من جهة وبين الفرعون من جهة اخرى ،فنقرأ في الفصل الخامس من سفر الخروج ما يلي :

" .. دخل موسى وهارون وقالا لفرعون كذا قال الرب اله اسرائيل ، اطلق شعبي لكي يعيدوا لي في البرية .. فقال لهما ملك مصر لماذا ياموسى وهارون تعطلان الشعب عن اعمالهم امضوا الى اثقالكم ( اثقالكم : من عندنا ) وقال فرعون هو ذا كثير شعب الارض فكيف ارحتماهم من الاعمال .."

فالتعبيد للرب ،كما يتضح من هذه العبارة ،تعطيل وراحة من العمل بدلا من تخفيفه ( ككل الاغية يتحسب من اقل بادرة ثورية ) امر الفرعون بتشديد العمل بدلا من تخفيفه كي يمنع كل امكان مادي لاي لقاء كان يمكن ان يتم بين الناس المسحوقين بالعمل وبين قادتهم ( محرضيهم ) ، ولكي ينشغل اولئك الكادحون ايضا بالعمل عن ان يقابل بعضهم بعضا

فيتشاكون همومهم :

" ليثقل العمل على الشعب فيشتغلوا به ولا يلتفتوا الى كلام الكذب " ( ذات الفصل السابق من التوراة )

ونقرأ في هذه القصة امورا نجد مايماثلها في الآثار التي اكتشفت في الحفريات في مصر ،نجد مثلا في التوراة ،في الفصل الآنف الذكر :

" قالا ( موسى وهارون : من عندنا ) .. فنذهب مسيرة ثلاثة ايام في البرية ونذبح للرب الهنا .."

بينما نجد على اثر فرعوني في المتحف البريطاني وهو " لوحة بابيرية سجل فيها احد رؤساء العمال اسماء ثلاثة واربعين عاملا ودون هذه الاسماء ايام غيابهم واسباب هذا الغياب : من تضحية للاله ..." * . واننا لنجد ايضا في فصل التوراة الذي نحن بصدده ما يقابل رئيس العمال الآنف الذكر :

" فخرج مسخرو الشعب ومدبروهم وقالوا للشعب قائلين كذا قال فرعون لست اعطيكم تبنا " .

فالمسخرون ( بكسر الخاء ) هم جند فرعون (او رب العمل ) ،كما يتضح من قراءة فصل التوراة ،وكانت مهمتهم مراقبة العمل وانزال العقاب " بالمقصرين " ،اما المدبرون فهم " رؤساء العمال " الذين كان على كل واحد منهم حمل الدوام ،مسك لوحة الحضور والغياب الآنفة الذكر مثلا :

" وضرب مدبرو بني اسرائيل الذين ولاهم عليهم مسخرو فرعون

---

* قصة الحضارة ص٨٧

وقيل لهم ما بالكم لم تكملوا فريضتكم من عمل اللبن امس واليوم مثل امس فما قبل" .

فالامر اذن لايخرج عن نطاق العمل والسخرة ،وعن نطاق مايمتاز عن هذا من تناقض وخلاف بين رب العمل وبين من سخر للقيام به من عبيد وغيره . وقد اندلع الاضطراب كما نرى بوضوح بتقدم "زعيمين" مناضلين بطالب الى "رب العمل" (الى الفرعون) ليمنح هذا الاخير العبيد والمسخرين ايام عمل وراحة . وكان لهذا الطلب مضاعفاته الخطيرة التي لم تتوقف في النتيجة عند مضمونه بل تصاعدت الى ان بلغت مبلغ الثورة العارمة من اجل الخلاص من ذلك الظلم بكليته ، من ذلك النظام ،وليس فقط من اجل الحصول على يوم راحة اسبوعية او ايام اعياد .

ان العصا التي كان يمسك بها كهنة فرعون وسخرته وجنده "ليحرك" بها هؤلاء عضلات العبيد والمسخرين لانتاج مختلف القيم كان لها شأن خطير في تلك الايام . وما زال هذا شأنها قبلئذ وبعدئذ حتى عصر الخط وبعده . ولقد افرد لها الخط فصلا خاصا في كتابه الشهير : البيان والتبيين . بل كانت الى جانب الحجر اول اداة اخذ بها الانسان في مسيرته الطويلة الصاعدة نحو التقدم والرقي . فبالعصا دافع الانسان عن نفسه ضد الوحوش والافاعي ، ومنها صنعت مختلف الاسلحة كالرماح والدبابيس والقسي والنبال والحراب ،ومختلف الادوات كالسلالم والفؤوس والرفوش والمحاريث البدائية وعمد الخيام وسقوف الاكواخ . وباربعة عصي صنع الانسان اطار اول نول ، وبعود صنع منزله الخ .. فيمكننا ان نقول اذن ان مدنية الانسان

كانت طيلة عصور طويلة مدنية العصا : لقد كانت العصا على اختلاف اشكالها في يد العبد للعمل ،وفي ظهره لحثه على العمل . وقد امسك موسى بالعصا ،او انه سلح بها الثوار من الشعب ، حرس المسحوقين بالعصا لياخذوا بالعصا على ايدى مستعبديهم ، فاذا بهذه الاخيرة تبتلع تلك : آلاف عصي الشعب تغرق عصي الاسياد فتكسر وهمها .. فسال الدم حتى غلى ارض مصر :

" .. ويكون دم في جميع ارض مصر وفي الخشب وفي الحجارة ( تقارن بالدم العصي والحجارة التي كانت وما تزال سلاح المتظاهرين ضد السلطة : من عندنا )" .

( الفصل السابع من الخروج)

وتعالت اصوات الاحتجاجات حتى ملأت الاسماع وأقضت المضاجع ،بعد ان عم الاستياء وانتشر في اوسع دوائر المجتمع حتى بلغ حامية الملك :

" .. فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتنتشر في بيتك ( في بيت فرعون : من عندنا ) وفي مخدع فراشك .." .

( الفصل الثامن من الخروج )

واضرب عمال التنظيفات عن العمل فانتشر البعوض والذباب في الارض التي اشتهر اهلها بحرصهم الشديد على النظافة التي تحميهم من الاوبئة والامراض الفتاكة :

" .. فكان البعوض على الناس والبهائم . كل تراب الارض صار بعوضا في جميع ارض مصر .

( الفصل الثامن من الخروج )

قلنا ان ما نقرأه في سفر الخروج من وصف للأزمة الاجتماعية الحادة ماهو في الواقع الا ذكريات الاجيال ( التي اتت فيما بعد) لكل تلك المظالم التي كانت تنزل بالشعب الكادح ولكل تلك الثورات التي كان يقوم بها ذلك الشعب ردا على تلك المظالم في طور تاريخي كامل وليس في زمن معين هو زمن الدعوة الموسوية . كما ان هذه الدعوة بلورت في النتيجة كل الثورات والانتفاضات التي سبق ان قام بها العبيد والمسخرون ضد مستغليهم . ومن ناحية اخرى نجد ان أولئك الثائرين كانوا من الاقوام القاطنة في الامبراطورية المصرية وحول هذه الامبراطورية : من المصريين والكنعانيين والكلدانيين والآشوريين الخ .. اى من الذين استعبدوا بنتيجة الحروب ومن المسخرين من صناع وفلاحين مصريين وقاطنين في مصر . ذلك لأن قسوة الاستغلال ما كانت تنزل فقط بفئة معينة من كل الطبقات الدنيا في المجتمع . وليس من المعقول ان تشعر فئة واحدة فقط من المظلومين بالظلم ( ان يشعر العبرانيون مثلا وحدهم بالظلم ) دون كل الفئات الاخرى ، وبالتالي كان من الطبيعي ان تنتشر على الدوام فكرة الثورة على ذلك الواقع بين كل الكادحين من كل الاقوام وفي مقدمتهم المصريو الاصل : اى باختصار كانت تلك الاضطرابات الاجتماعية طبقية وموجهة ضد اشد الطبقات رجعية ، ضد طبقة الكهنة مثلا .

بلغت الثورة حدا من الاتساع في الدعوة الموسوية مما اضطر معه الفرعون لان يرضخ لطلب الخروج من مصر لكل الفئات الراغبة فيه . وكان ذلك الخروج منظما على شكل كتائب على شكل اسباط . الامر

الذى يدل على اتساع عملية التنظيم التي قام بها قادة تلك الثورة ، ويدل على الوقت الطويل الذى استغرقته تلك العملية قبل اعلان العصيان ،فمثل ذلك التنظيم الثورى لايرتجل ارتجالا ولا بد له من العمل الدائب والتثقيف الطويل كي يتم بنجاح : لابد له من دعوة ، ثم ان الاهتداء الى ضرورة التنظيم والتثقيف يكون دوما بنتيجة تجارب مريرة سابقة يسقط فيها كثير من الضحايا بالارتجال والمغامرة وارتكاب شتى الاخطاء ( بنتيجة دروس وعبر سابقة ) ، وبالاختصار نجد ان ذلك الخروج المنظم من مصر يكفي بتنظيمه للدلالة على ان الدعوة الموسوية كانت تبلور محاولات ثورية وثورات وانتفاضات سبقتها ،

لقد اتصفت الدعوة الآنفة الذكر بكل صفات الحركات الثورية ، ففي اثناء توالي الاحداث في مصر قبل الخروج مثلا ،واثناء الخروج، وبعد الاستقرار في سيناء ، برزت الصعوبات ( كما تبرز في كل الثورات ) وظهر المترددون والمتخاذلون ، فنقرأ مثلا في الفصل الخامس من سفر الخروج نموذجا من الصعوبات التي قامت قبل الخروج من مصر:

" فقالوا لهما ( اى قال رؤساء الشعب لموسى وهارون : من عندنا ) ينظر الرب ويحكم عليكما كما افسدتما امرنا عند فرعون وعند عبيده وجعلتما في ايديهم سيفا ليقتلونا " ،

وفي الفصل الرابع عشر من الخروج نجد هذه الاشارة الى صعوبات المسيرة الى سيناء :

" وقالوا لموسى امن عدم القبور بمصر اخرجتنا لنموت في البرية ماذا صنعت بنا فاخرجتنا من مصر " ،

وفي الفصل السادس عشر نجد الصعوبات وشظف العيش في سيناء

" وقال لهما ( لموسى وهارون : من عندنا ) بنو اسرائيل ليتنا متنا بيد الرب في ارض مصر حيث كنا نجلس عند قدور اللحم وناكل خبزنا فلم اخرجتمانا الى هذه البرية ( الى سيناء : من عندنا ) لتقتلا هذا الجمهور بالجوع " .

قلنا ان الظلم كان ينزل بابقة ،بالعبيد والمسخرين ،وليس فقط بجنس معين ،بالعبرانيين مثلا . وقلنا ايضا ان الثورات والانتفاضات ومحاولات التخلص من الظلم تكررت طيلة مرحلة تاريخية ( محاولات التخلص من ظلم هو ظلم العبودية ) . وهذه المحاولات لم تقع في مصر وحدها ،وانما في شتى انحاء جملة المجتمعات العبودية في مناطق البحر الابيض المتوسط وفي شتى ازمان ذلك الدور . وكان كثيرون من الهاربين من الظلم يلجأون الى الواحات والصحارى العربية ، سيما منها سيناء ،حيث كانوا يشكلون هناك عصابات خارجة على نظام المناطق ،عصابات تقوم بالغارات على قرى التخوم وقطع الطريق على القوافل والمسافرين الاغنياء وغيره . وقد استفحل امر هذه العصابات وازداد عددها بتكرار اللجوء بمرور الايام ،حتى غدت على شكل جماعات كبيرة وقبائل . وقد مر معنا ذكر الخابيرو الذين وردت انباؤهم في مخلفات تل العمارنة وفي آثار ما بين النهرين . تلك الجماعات التي كانت تغير على فلسطين والنقب وشرقي الاردن ،منذ ايام الهكسوس حتى عصر اخناتون . وكان هؤلاء "جماعات من الرجل والاجانب والاشقياء والمستعدين للانضمام الى صفوف اى جيش لقاء اجر او بدافع الحصول على الغنائم "* . و "يعملون في اوقات السلم

---

* حتى،تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ١٧٣

كعصابات متجولة مغامرة تغير على المدن والقرى عابثة في الارض فسادا "* . فمثل هذه الجماعات تشكل ملاذا امينا لكل هارب مصمم على مشاركتها حياتها بمغامرها ومتاعبها ، ان لم تكن قد تكونت هي في الاصل من الهاربين كما اسلفنا . ان صفات الخابيرو تنطبق على صفات اليهود الاوائل ، الامر الذي يوحي بان الخارجين من مصر مع موسى التقوا بهم ثم اختلطوا بهم بمرور الزمن ، وذلك على اعتبار انهم جميعا ( الخابيرو وجماعة موسى) من اصل واحد هو : كونهم من المضطهدين الهاربين من الظلم الى الصحارى العربية . ومما يؤيد هذا الامر هو اختفاء ذكر الخابيرو فجأة بعد ان عاثوا فسادا في المناطق ( حول فلسطين وفي فلسطين ) عددا من القرون ، وذلك بمجرد ظهور اليهود على مسرح التاريخ كيهود ( بمجرد وصول اليهود الى فلسطين). ولننظر الى اوصاف العبرانيين الاوائل :

" كان بنو اسرائيل اقل من امة ، كانوا اخلاطا من عصابات جامحة ، كانوا مجموعة غير منسجمة من قبائل سامية صغيرة افاقة بدوية ، تقوم حياتها على الغزو والفتح والنهب وانتهاب القرى الصغيرة حيث تقضي عيشا رغدا دفعة واحدة في بضعة ايام ، فاذا امضت هذه الايام القليلة عادت حياة التيه والبؤس" **

ما كان اليهود الاوائل موحدين جميعهم ، بل كان بينهم كثير من الوثنيين ، مما يدل بوضوح على تنوع اصولهم :

" كان اليهود في اول ظهورهم على مسرح التاريخ ( اي بعد الخروج من مصر ، لان تاريخهم في مصر وقبل مجيئهم الى مصر غير معين ، فهو تاريخ كل المضطهدين والمسخرين من اقوام الامبراطورية السامية

---

* برستيد ، تاريخ مصر الى الفتح الفارسي ص ٢٥٧

** غوستاف لوبون ، اليهود في تاريخ الحضارات الاولى ص ٣٢

في الطور العبودى الاول : من عندنا) بدوا رحلا يخافون شياطين الهواء، ويعبدون الصخور والماشية والظأن وارواح الكهوف والجبال . ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل .. وفي تاريخ اليهود الباكر شواهد كثيرة على انهم عبدوا الاقمى .. وكان بعض اليهود يعظمون بعل " * .

هذه الآلهة المصرية ( العجل والحية ) والكنعانية ( الاله بعل ) تشهد على ان الخارجين من مصر في كل العهود ما كانوا من جنس واحد ( من جنس معين كعبرى مثلا ) ، بل كان فيهم المصريون والكنعانيون والبابليون وغير هؤلاء من الساميين الذين كانوا يحملون في مصر كمهاجرين او كعبيد . وعند استقرارهم في سيناء وتوحدهم بالدعوة الموسوية ، استمرت هذه الصحراء بطبيعة الحال في كونها ملجأ لكل عبد ومسخر ومضطهد يود التخلص من عذاب العبودية والاضطهاد في كل المناطق السامية : في مصر وسورية وما بين النهرين الخ.. وكان من هنا ان اشتد تنوع الاقوام والسلالات التي تالف منها اليهود ، الا انهم كانوا باكثريتهم من الساميين . فهم " لايتميزون تميزا واضحا ولا يختلفون اختلافا كبيرا عن غيرهم من الساميين سكان آسيا الغربية ، وانهم لم يوجدوا تاريخهم ، بل ان تاريخهم هو الذى اوجدهم ،وانا لنراهم من بداية ظهورهم خليطا من سلالات كثيرة " * *

ان تاريخ اليهود قد اوجد اليهود اذن : ثورات العبيد والمسخرين وامثالهم اوجدت هذا القوم الذى نشأ وتطور في بادئ الامر تحت اسم الخابيرو ،ثم العبرى بعد الدعوة الموسوية . اما الوعد بفلسطين ( الارض الموعودة ) فهو ناشئ في الواقع ، بنتيجة تكاثر تلك الاقوام

---

* قصة الحضارة ص٣٢٨ * * المصدر ذاته ص٣٢٨

في سيناء من جراء اللجوء الى هذه الصحراء باعداد ما انفكت عن التزايد من العبيد والمضطهدين من مختلف اصقاع المنطقة بحيث ضاقت موارد الصحراء المذكورة في النتيجة فكانت فلسطين التي تدر اللبن والعسل ،بحسب تعبير التوراة ،" المدى الحيوي " الوحيد والقريب لاولئك الجياع المتكاثرين .

يقول الاستاذ مصطفى مراد الدباغ في كتابه " بلادنا فلسطين" :

" كانت المصرية القديمة منتشرة في جميع المدن الفلسطينية المشهورة ،وخاصة في بيسان ، كما كانت اللغة الكنعانية منتشرة في كثير من مدن مصر الشمالية . واللغة المصرية التي كان يتكلم بها المصريون القدماء قريبة جدا في اصول مفرداتها من لغات البربر وافريقيا الشرقية ،كما تشبه اللغات السامية في كثير من قواعدها . وهذه اللغة تقلبت في اطوار عدة .." * .

ونقرأ في الموسوعة بريتانيكا :

" من الواضح ان الكنعانية كما هي مدونة بالنصوص المصرية - البابلية القديمة ،على الرغم انها لم تكن شكلا من العبرانية ،اعطت هذه الاخيرة الكثير من خصائصها .. وان الآرامية ساهمت بعض المساهمة في تكوين اللغة العبرية .. وعنصر آخر ياتي الى العبرية من الاكادية والبابلية - الآشورية .. ان عناصر من لغات سامية متعددة قد ساهمت في تكوين العبرية . بالاضافة الى ذلك فان علم الآثار يظهر ان شعبا غير سامي كان يسكن فلسطين يمكن ان يكون قد ساهم ايضا في اغنائها ببعض الكلام البدائي . والوثائق المصرية والبابلية تبرهن على ان لغة

---

* ج١ ص ٥٣٠

سامية غربية ( كنعانية ) تشبه العبرية كانت دارجة في كنعان قبل مجيء العبرانيين ( من سيناء بعد الخروج من مصر بقيادة موسى : من عندنا ) والوثائق المصرية منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد تظهر وجود ١٢٠٠ كلمة سامية بعضها شائع في عدة لغات سامية والبعض الآخر خاص بالفرع السورى الكنعاني ..." * .

نرى اذن ان الاقوام اليهودية ليست بعيدة فقدا عن ان تكون ذلك "الشعب المختار" الذى يختلف في تكوينه عن بقية الشعوب فيمتاز عنها امتيازا مزعوما بخواص غيبية وبوعود تاتيه من السماء ، بل انها تجمعات حديثة بين الشعوب ،فلا تصعد بوادر نشاتها في التاريخ الى ابعد من عهود ازمات جملة المجتمعات الانسانية العبودية التي راينا ارقا منها فيما سبق من هذا الفصل . فاللغة العبرية مثلا ليس لها اى اثر بين الكتابات القديمة التي عثر عليها في الحفريات والتي تعود الى ازمنة تسبق زمن وصول اليهود الى فلسطين . فاية لغة كان يتكلم بها اولئك الذين خرجوا مع موسى لو كانت هذه اللغة من اللغات البائدة العائدة الى شعب موحد كان يتكلم بها ثم نسيها بسبب ظروفه الطارئة فيما بعد لكنا وجدنا اثرا ولو ضئيلا لها . وصحيح انه وجدت كتابات بابلية في الحفريات المصرية ،الا ان هذه الكتابات لا تشير لا من قريب ولا من بعيد الى شعب خاص كان يعيش في مصر . والواقع ،ان تلك الجماعات التي انضوت تحت لواء موسى كانت على العموم تتكلم اللغة المصرية على اعتبار انها كانت تعيش في مصر ،كما انها كانت تتكلم لغات اخرى خاصة معظمها سامية ،بسبب كونها من اصول سامية بمعظمها ،

---

* المجلد ١١ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠

وقد اتت الى مصر كعبيد او كمهاجرين من مختلف انحاء الامبراطورية المصرية . فاللغات الآنفة الذكر تعود اذن باصولها الى اصل سامي في غالبيتها المطلقة ،فهي ماكانت تؤلف على العموم سوى لهجات من لغة واحدة . وقد انصهرت هذه اللهجات فيما بعد في لهجة متميزة : عندما اشتركت تلك الجماعات الآنفة الذكر بمصير واحد بعد خلاصها بالخروج الى سيناء ،ثم دخولها ارض فلسطين كبدو رحل بين اولئك الكنعانيين المتمدنين الذين كانوا يتكلمون تلك اللغة التي قالت الموسوعة " بريتانيكا " انها تشبه العبرانية . لقد انصهرت في سيناء وفي فلسطين كل تلك الجماعات في قوم واحد نشأت له لغة واحدة هي بنت كل تلك اللهجات الآنفة الذكر مع تلك الكنعانية الشبيهة بالعبرية . وهذا لاينفي بطبيعة الحال وجود جماعة صغيرة من اصل كلداني كانت تعيش في مصر ،وكانت من سلالة اسرة يعقوب الذى كان ولده يوسف يحتل في عهد الهكسوس مركزا رفيعا في الدولة . الا ان الاسرة الواحدة ،او الجماعة الصغيرة لاتستطيع ابدا ان تحتفظ لايلة قرون بلغة خاصة بها دون كل تلك الجماعات الاخرى المكونة للعبرانيين . ولا بد من قيام لغة مشتركة بمرور الزمن وبالاحتكاك المتواصل لمختلف فئات الناس المشتركين في حياة واحدة عددا من القرون .

اقليات مبعثرة وليس شعبا : لنستعرض اضافة الى ما مر معنا اعلاه الامور الاساسية التالية :

اولا : تقول الموسوعة بريتانيكا * :" هناك تقسيمات ثلاثة كبرى

---

* مجلد ٢٠ ص ٣٣٤ طبعة ١٩٦٥

للشعب اليهودى : السفرديم هم اليهود الذين كان اسلافهم يعيشون في القرون الوسطى في اسبانيا ( سفاراد في العبرية ) • وبعد اردهم من اسبانيا ( ١٤٩٢ ) اقاموا في فرنسا وهولندا وانجلترا وايطاليا واليونان وتركيا وفلسطين وشمال افريقيا ،كما فيما وراء البحار * حيث استمروا في الحياة • ولقد احتفظوا في كل مكان بعاداتهم واقوسهم الدينية وبلغة اللادينو ( الاسبانية اليهودية ) وهي شكل من اللغة الاسبانية في القرون الوسطى مع بعض العبارات العبرية وتكتب بحروف عبرية • وتعداد السفرديم كان نصف مليون عام ١٩٦٠ •

والاشكنازيم ( من اشكناز العبرية اى المانيا ) هم اليهود الذين عاش اجدادهم في العصور الوسطى في الاراضي الالمانية وهاجروا من هناك الى شرق وغرب اوربا ،وفي القرن التاسع عشر والعشرين الى الخارج • وعاداتهم واقوسهم الدينية تختلف بشكل ملحوظ عن عادات واقوس السفرديم • وحتى نهاية القرن التاسع عشر كان معظم الاشكنازيم يتكلمون اليديدية او الالمانية اليهودية ،وهي شكل من المانية العصور الوسطى مع نسبة معينة من التعابير العبرية وتكتب كاللادينو بحروف عبرية • والعدد الكلي للاشكنازيم في عام ١٩٦٠ كان يقدر بعشرة ملايين بما فيهم الخمسة ملايين يهودى في الولايات المتحدة وما يقرب من ثلاثة ملايين في النظام السوفياتي •

واليهود الشرقيون وعددهم مليونان وهم اكثر اختلافا في خصائصهم العرقية من السفرديم والاشكنازيم ••• ويقيمون في البلاد العربية حيث يتكلمون اللغة العربية ،وفي ايران وافغانستان وبخارى حيث يتكلمون الفارسية ،وفي كردستان حيث يتكلمون الآرامية الجديدة •••

---

* ما وراء البحار تعبير يعني العالم الجديد : اميركا واستراليا ونيوزيلندة •

وهناك جماعات يهودية صغيرة لا يمكن تصنيفها باحد الاقسام الثلاثة اعلاه . منهم جماعات ايطالية .. ويونانية .. والفلاشا او يهود اثيوبيا السود .. وبنى اسرائيل او يهود الهند السود .. وكلهم من اصول غامضة ..»

ان معنى اشكناز على انه المانيا بالعبرية كما ورد في عبارة الموسوعة اعلاه هو معنى مولد . انه ينبئ في الاصل عن الجهة التي جاء منها اولئك اليهود ( اى الاشكنازيم ) وهي منطقة ما وراء القفقاس ، كما تنبئ سفرديم عن اليهود من اصل اسباني . فنجد في كل من سفرى التكوين واخبار الايام الاولى من التوراة العبارة التالية : « .. وبنو جومر ( ابن يافث ابن نوح : من عندنا ) اشكناز وريفات وتوجرمة » * . ونقرأ في نبوءة ارميا : « .. وناديوا عليها ( على بابل : من عندنا ) ممالك ارارات ومني واشكناز ..» * * . وقد توزعت البشرية على العالم بحسب تصورات عهود التوراة من منطقة جبال ارارات حيث رست سفينة نوح بعد الطوفان . * * * وانتشر ابناء يافث ( ومنهم ابناء اشكناز ) بتلك التصورات الى شرق الجبال المذكورة وحولها . فانا اخذنا بعين الاعتبار ان الارض الالمانية ما كانت موجودة في تصورات ابناء تلك العهود فلا يمكن ان يمتد اليها معنى كلمة اشكناز التوراتية ، وبالتالي لابد من ان تكون قد اكتسبته بالعبرية من الطارئين عليها من اليهود ( الذين لابد من ان يكونوا قد اتوا من الجهة التي كانت فيها مملكة اشكناز التوراتية ، اى من جهة القفقاس عبر روسيا ) وليس العكس بان يكتسب

---

* العبارة ٣ من الفصل ١٠ من سفر التكوين ، والعبارة ٦ من الفصل ١ من اخبار الايام الاولى .

* * ع ٢٧ ف ٥١ * * * تقول ع ٤ ف ٨ من سفر التكوين : « واستقر التابوت ( السفينة : من عندنا ) في الشهر السابع من اليوم السابع عشر منه

هؤلاء اليهود اسمهم منها ( من المانيا ) كما يفهم من عبارة الموسوعة اعلاه : ان البلغار مثلا اعطوا اسمهم لموطنهم الحالي بلغاريا .

ثانيا : مر معنا ان الجملة الانسانية في منطقة البحر الابيض المتوسط كانت تحتوى على المجتمعات التي انخرطت في انظمة متقدمة متطورة تنتمي الحضارات المتعاقبة في طوري الرق والحرفة الحرة ( وهي المجتمعات المستقرة ماديا وروحيا ) ،كما كانت تتضمن مجتمعات متخلفة غير مستقرة تعيش حياة البداوة وتدور في فلك تلك المجتمعات المتحضرة في الطورين المذكورين . وذكرنا من هذه المجتمعات ذلك الخليط الهائل من الاقوام التي كانت تعيش في الاصقاع القاسية الصعبة فيما وراء القفقاس وشمالي بحر قزوين وشرقه والسهوب الروسية حتى المناطق الممتدة من اسكندنافيا الى البلقان والنمسا . ونحن نعلم ان هذه الاقوام كانت تتقاتل وتتدافع فيما بين بعضها البعض فيطرد الواحد منها الآخر ليحل في ارضه ليطرد بعد ذلك بدوره من قوم ثالث ،وهكذا الى ما لا نهاية ايلة تلك الصور : هجرات واجتياحات الجرمن والهون والسلاف والآفار والفايكنغ الخ .. وكثيرا ما كانت تلك الاقوام تنقض على المناطق الحضرية في فارس وما بين النهرين وروما للقيام باعمال السلب والنهب . وكان العالم المتحضر يتعامل معها بطريقتين على العموم :

- طريقة الدفاع بمنعها من تجاوز حدود الحضر بالقوة .

- طريقة التجارة باقامة الاسواق ومراكز التبادل في اصقاعها من قبل التجار . فنجد مثلا في العهد الاسلامي في بلاد الخزر التجار المسلمين والمسيحيين واليهود يبادلون المنتوجات الحرفية المصنوعة

في دار الاسلام وفي بيزنطة بالفراء والمنتوجات الحيوانية الاخرى والحاصلات الزراعية لتلك المناطق ( بالاضافة الى اسواق النخاسة ).

ان تلك الاقوام بقيت على وثنيتها البدائية السائدة ( المختلفة جذريا عن وثنية المتحضرين في عهد الرق الفنية بخيالها والمتناسقة بانظمتها والمتسمة بفروعها ،فتمثل بحق صورا لمجتمعات متحضرة معقدة ) نقول بقيت على وثنيتها المتخلفة حتى عصور متاخرة : لم تنتشر مثلا المسيحية بين الروس الا في القرن العاشر الميلادي. وكان من الطبيعي اذن ان يكون لاديان التوحيد الثلاث مجالات الانتشار بين تلك الاقوام ( التي لايمكن ان تبقى على تخلفها المادي وسذاجتها الفكرية والروحية الى مالانهاية )،نقول من الطبيعي ان ينتشر التوحيد هناك بنتيجة التماس المتمادي عبر العصور وبحسب الظروف فكان ان انتشر الاسلام بين معظم الاقوام التركية ،بينما انتشرت المسيحية بين الجرمن والسلاف وبعض الاتراك كالبلغار والمجر وغيرهم. وكان ايضا ان انتشرت اليهودية بين قبائل الخزر التركية منذ منتصف القرن الثامن الميلادي ( ومن الطبيعي ان ينتشر الدين اليهودي بين غير الخزر من تلك الاقوام ، الا ان هؤلاء دخلوا تحت هذا الاسم لانه يعبر عن القوم القوي بين كل الآخرين المتهودين ).

اننا نجد اذن هنا في الخزر ( ابناء يافث) الاصول الاولى لليهود الاشكنازيم.

ثالثا : في اعقاب الحروب الصليبية والاجتياح المغولي تسارع انهيار العالم الحرفي في كل انحاء العالم المتقدم ،لاسيما منه العالم الاسلامي ،واخذت اسس الطور الراسمالي تظهر في ذات الوقت في اوربا

حيث ارتقت الحرفة واتسعت التجارة . فبالاضافة الى الازدهار الاقتصادى للبندقية وفلورنسا ( بؤرتي جرثومة الراسمالية الاولى ) ، قام في المانيا وهولندا اتحاد المدن التجارية * الذى بدأ بمدينتي هامبورغ ولوبك في عام ١٢٤١ ميلادية ، ثم بلغ اوج عنفوانه في القرن الخامس عشر عندما كان يضم نحو اربع وستين مدينة . وقد امتدت فروعه من نانت على اللوار في فرنسا الى نوفجورود في اقصى الشمال الغربي الروسي عبر المانيا وبولونيا وروسيا . وكان لهذا الاتحاد كل اسس الدولة ومؤسساتها : له جيشه واساليله البحرية وماليته وسلالاته التي تسن القوانين وتبرم المعاهدات وتعلن الحروب الخ .. وامتد سلطانه ونفوذه فشمل كل اوربا الوسطى والشمالية والشرقية وهيمن على تجارتها .

وكانت امبراطورية الخزر قد انهارت في هذه الاثناء ، كما عصفت الموجات المغولية المتتابعة في اواسط آسيا وغربها فشددت من تفاقم الانهيار الاجتماعي بكل اوجهه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في دار الاسلام وواجه فرع قوى من تلك العواصف الى مناطق الاقوام التركية والسلافية وبلغ قلب روسيا واوكرانيا . وقامت نتيجة لذلك حركة كبرى من الهجرات بين تلك الاقوام التي كانت على طريق العواصف المغولية ، ومنها هجرة اليهود الخزر نحو مناطق الانتعاش الاقتصادى في اوربا الوسطى والشمالية ( تاركين بهذا مناطق الخراب والانهيار الاقتصادى الناجم عن خراب المدن الاسلامية وتفسخ الامبراطورية البيزنطية حيث كانت علاقاتهم التجارية قوية نشطة مع هذه المناطق

---

* الجامعة الهنصية : انظر مختصر هذا الموضوع في اللاروس الفرنسي تحت كلمة : Hanse .

ايام استقرارها وازدهارها) . وقد توضع اولئك المهاجرون على الاقل على الطريق التجاري بين اتحاد المدن الآنف الذكر وبين روسيا: في بولونيا مثلا حيث كان مركز ثقل كثافتهم، وفي شرقي المانيا وروسيا ودول البلطيق وفنلندة . وهؤلاء هم الاشكنازيم المذكورين اعلاه، اي المتهودين الاتراك الخزر بغالبيتهم، الذين اتوا من جهة مملكة اشكناز التوراتية واعطوا المانيا اسم هذه المملكة .

ونرى في الطرف الآخر انحسار آخر معاصر للسلطات الاسلامية في الاندلس والمغرب العربي (حيث قامت دويلات الطوائف المتناحية فيما بينها والمهزومة كلها امام العدو)، في الوقت الذي اخذ فيه الاسبان بالتقدم والتوسع في الاراضي الاسلامية الاندلسية طيلة القرون التي تنامى فيها اتحاد المدن الالمانية المذكور اعلاه (من القرن الثالث عشر حتى آخر القرن الخامس عشر عندما تم سقوط الاندلس نهائيا بيد الفرنجة) . وكان اليهود السفرديم يبقون حيث هم في القطر الذي كان يسقط بيد الاسبان من الاندلس، بل ان بعض من كان منهم في المغرب العربي الذي كانت تعصف فيه الاضطرابات آنذاك كان يرحل الى المناطق المسيحية في اسبانيا التي كانت بادية الحال علاقاتها وتجارتها نشطة في تلك الايام مع بقية الاقطار الاوربية التي انتعش اقتصادها، لاسيما منها اتحاد المدن الالماني، والبندقية وفلورنسا محتكرتا الاتجار مع الشرق الاقصى والهند عن طريق مصر والجزيرة العربية، تاركين بذلك (اي اولئك اليهود السفرديم) العالم المتداعي في ذلك الوقت، لعالم المسلمين المتناحرين ابدا .

ونرى في الحالتين المذكورتين اعلاه ان اولئك التجار اليهود

اكتسبوا لغة ملائمة لوسطهم الجديد ( وهي لغة مخلوطة بالعبرية بطبيعة الحال ) وتسوا لغتهم القديمة : اليديدية في اواسط اوروبا وشرقيها بعد لغالتهم التي كانوا يتكلمون بها في امبراطورية الخزر وما حولها ، واللادينوا في اسبانيا المسيحية وغربي اوروبا بعد العربية .

وقد تعرض اليهود على الدوام في اوروبا الرأسمالية للاضطهاد والملاحقة ، الا انهم مع ذلك كانوا على الدوام يعودون " ليحطوا " على طرق التجارة وفي مناطق المال والاعمال .

وبعد ، تجد اليهودية كدين لا يمكن ان تشكل شعبا موحدا لامكان دخول العديد من الاجناس فيها ، وهي كما رأينا لا تضم الا اقليات متناثرة تختلف فيما بين بعضها البعض في كل شيء : بأصولها ولغاتها وظروفها ومجتمعاتها المتباعدة التي ضمتها . ومن الطبيعي وهي على هذه الحال ( تلك الاقليات المبعثرة ) ان لا يكون لها اية فرصة للاشتراك بدور واحد في بناء الجملة الانسانية منذ نشأتها حتى اليوم ، اللهم الا دور قادتها في تأجير انفسهم من كل رجعي في التاريخ الانساني ، سيما في هذا العصر الذى بلغ انحطاطهم فيه مستوى المتاجرة بدينهم وبالوعود المزعومة من السماء لخدمة اقذر امبريالية عرفها تاريخ البشر ، الامبريالية الامريكية - الصهيونية .

عفيف البزرى